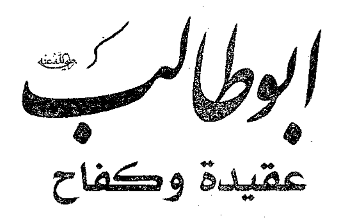


ابو طالب رضي الله عنه

عقيدة وكفاح

الشيخ ناجي أحمد الزواد



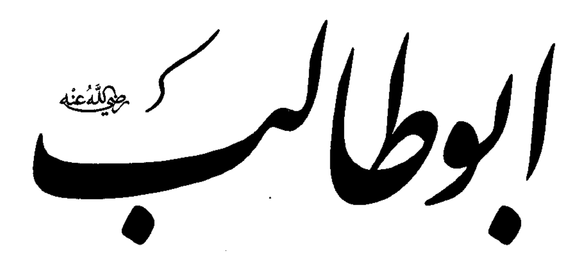


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِينَ

الشيخ ناجي أحمد الزواد



عقيدة وكفاح

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

تقديم

منذ أن شرعنا في عملنا أخذنا على عاتقنا العمل في بعدين أساسيين:

الأول: تلمُّس الحاجات الاجتماعية، والسعي الجاد لمعالجتها، وذلك من خلال تبني مجموعة من المفردات التي تساهم في ردم الفجوات الاجتماعية انطلاقا من أقوال النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام: «**إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ...**»(١).

الثاني: المساهمة الثقافية والعلمية، إيماناً منا بأن العلم والمعرفة هما الحارس لمجتمعنا: «**الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ**»(٢).

من هنا سعت مؤسسة أهل البيت الثقافية عليهم السلام، في سيهات لتبني الكتاب الديني بمختلف موضوعاته. وهذا الكتاب (أبو طالب.. عقيدة وكفاح) هو الاصدار الحادي عشر، لمؤلفه الكاتب: الشيخ ناجي أحمد الزواد.

مؤسسة أهل البيت الثقافية

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص٣١٨.

(٢) بحار الأنوار: ج١، ص١٨٧، من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد رضي الله عنه.

كلمة البدء

منذ أمد بعيد تضافرت الأقلام المشبوهة للتلاعب والعبث برصيد الشخصيات التاريخية النضالية وتغييب أدوارها الريادية على صعيد العطاء الديني والإنساني، ولطالما انتقصت من حقوقها وتضحياتها الجزيلة، ولم يكن هذا التوجه السافر على مرحلة دون أخرى، أو ضمن ظرف دون آخر، وإنما هو امتداد متواصل تجاه الرموز المخلصة، وما قدمته من إنجازات ومكاسب، أسهمت في دفع المسيرة الإنسانية، وجددت فيها منطلقاتها وأهدافها المصيرية.

وكما أصاب الخلل مجالات متعددة من نظم الحياة حيث سعت الأطراف وابتغت الأهداف المغرضة إلى تغييب المعالم والرؤى الأصيلة، فإن الموروث التاريخي ناله نصيب من تلك المساعي المشبوهة، إذ لم يسلم من المقاصد والتوجهات التي سعت جاهدة لتشويه حقائقه والعبث بمكوناته. ثم لم تلبث دون استنفار وحشد ما تملك من قوى وإمكانات لزعزعة استقرار

النواة الصالحة التي تستند إليها منظومة المبادئ الخلاقة.

كما أن التاريخ -الذي يحتضن تراث الأمة وفلسفة وجودها ومعالم مكتسباتها ونهضتها في غمار الحياة- تعرض إلى ضربات متوالية ونكسات مريرة، وكان أبطال المعركة أولئك الجنود الذين شحذوا أقلامهم وأفكارهم للانقضاض على الأمة وسلب روح الجوهر الأصيل من معاني التراث، وساعدهم على ذلك ما حبلت به ضمائرهم وشحنت نفوسهم من ميولات وتوجهات متشنجة، استعصى عليهم السير في فلك الحقيقة وموافقة أفكارها وأصالتها، فسادوا أروقة التراث بما تنطوي في أعماقهم من عصبية وضغينة، لتغض الطرف عن مناقب ساطعة، وتضل عن الوصول إلى الطريق الصائب.

إن تلك المعارك التاريخية التي امتد أوارها إلى مدى بعيد استنفد جنودها من خلالها ما يملكون من وسائل وإمكانات، لم تكن موجهة لصد الأخطار والخطوب المحدقة بواقع الأمة ومكتسباتها الخصبة، قدر ما كانت موجهة على أبناء جلدتهم ونسيجهم الداخلي، ولو أنها وفرت تلك المساحة من الزمن لتستخدم قسطاً منه في استنباط الرؤى والأفكار لعلاج ما يطرأ من أزمات معضلة على الواقع المرير لأثرت ساحة الحياة بعطائها ونتاجها، غير أنها طوعت كل ذلك في الاحتراب الداخلي الذي أضنى الواقع وأعياه فضاعت فرص كثيرة على الأمة في خضم

الملاحم السجالية التي لم تعد عليها بنفع يذكر.

إننا اليوم لكي نقرأ تراثنا لنستلخص منه الدروس والعبر ينبغي أن نتجنب الموروثات العصبية المتشنجة، وسواء اتفقت الآراء أو اختلفت فإنها مطارحات وتصورات لا ينبغي أن تكون شرارة لإذكاء جروح الخلاف بقدر ما تكون نافذة للحوار الهادئ الذي يوصلنا إلى منابع الحقيقة التي تحقق إرادة التعايش المشترك بين الأطياف المتنوعة، ثم لا يستساغ بحال من الأحوال أن تكون الأسس والمعايير قائمة على النظرة الأحادية القاصرة، التي لا يمكنها فهم المجريات والأحداث إلا عن طريق وسائلها وآلياتها المختزلة، إنما هي بحاجة ماسة إلى استنطاق وجهات النظر المختلفة وتداول تصوراتها بروية وتمعن للتوافق على مبادئ مشتركة تجنب الواقع الصدامات والانتهاكات الفوضوية، وتحفظ للجميع الحقوق والخصائص باختلاف أعراقهم ومذاهبهم.

وحين نقف أمام صفحات التاريخ نجدها حافلة بالكثير من النماذج التي أغمض عن مآثرها وتضحياتها نتيجة العصبيات المقيتة، والتوجهات الحاقدة، ويأتي على رأس القائمة البيت الهاشمي، فقد جرت المحاولات الحثيثة لأبعاده قسراً عن حاضر الأمة وتراثها الأصيل، ورغم الإنجازات العظيمة التي قدمها هذا البيت فضلاً عن التضحيات والإسهامات

لحفظ تراث الأمة وصيانة مرتكزاتها ومعالمها السامقة، إلا أن المناوئين ظلوا يضيقون الخناق والحصار على تلك المآثر والإنجازات التي حققها أهل البيت عليهم السلام، بل أنهم غدوا للتصدي لكافة منطلقات هذه المدرسة وإسقاط خصائصها وحقوقها، والتعرض لرجالاتها، وإذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام رجل الإسلام الأول والفدائي المستبسل في نصرة قيم الدين والرسالة،لم تسلم شخصيته من التشويه والاتهام، مع كل ما لديه من رصيد ضخم لا يدانيه أحد من الصحابة، بيد أنه كان يلعن على منابر بني أمية زهاء سبعين عاماً أو أكثر، وكثرت الكذابة عليه ووضعوا الأحاديث بهتاناً وزوراً، وقد أورد ابن أبي الحديد في شرح النهج أن جماعة من المناوئين من أتباع بني أمية وغيرهم أوغلوا في صنع الأحاديث لتشويه شخصية أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أنفقت الأموال الطائلة لتحقيق تلك الغاية، وقد روي أن معاوية بذل لسمُرة بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾**[1]. وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ**

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٤ - ٢٠٥.

ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ﴾[١]. فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل، وروى ذلك[٢].

فإذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام الذي لا تشوبه شائبة لقي كل ذلك وفي وضح النهار، فما بالك بمن هم حوله؟ فهل لهم أن يسلموا من تلك الحملات المغرضة؟ وهل سيكون المناوئون نزيهين في الخصومة والصراع فلا يتبعون الوسائل الرخيصة والطرق الملتوية؟

إنهم دون أدنى شك لن يتبعوا الطرق المشروعة والوسائل السليمة، وإنما سيطوعون كل ما يتاح لهم من أدوات ووسائل للوصول إلى مآربهم وأهدافهم.

وانطلاقاً من ذلك الموقف المسبق أدرج سائر المقربين والتابعين في دائرة الخصوم، ولم ترقد بواعث تلك الفتنة المفتعلة، أو تركن إلى جو من الهدنة منذ ذلك الزمن، فأبو طالب رضي الله عنه الذي قدم الكثير وضحى بكل شيء في سبيل مؤازرة الرسالة والانتصار لقيمها ومبادئها، جردوه من كل جهوده وأصبح بلا موقف، متثاقل عن إعلان عقيدته ومنهجه، وهو الذي أفصح عن ذلك في كافة مواقفه ودفاعه عن

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٥٧، خ٥٦، الجزء الرابع، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

الرسـول الأكرم ﷺ، ولو لم يكن مـن التوثيق على ذلك إلا ما تركه من النظم الشعري البديع لكفاه شهادة على حسن عقيدته ومنطلقه، أما وقـد أظهر تلك المؤازرة والنصرة فإنه لا يترك مجالاً للريبة والشـك، إلا لـذوي النفوس السـقيمة، التي تأثرت بأحداث الماضي فانسـاقت في إطلاق الأحكام على تلك الأسس والمعتقدات.

ومما يثير الدهشة والعجب أن تلك الأقلام التي دأبت على إثارة سـموم التشكيك والانتقاص من شخصية أبي طالب رضي الله عنه والنيل من عقيدتـه وجهاده، تجدها في ذات الحال تمجد رموزاً إجرامية طبعت بصمات سوداء على صفحات التاريخ، كيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسـف الثقفـي، لتجنبهما جنايات التاريخ الغابر والدماء التي سفكت على ضفافه، فتلك الأقلام المشبوهة وسـعها أن تسـتنبط من خـلال إثارة قضايـا التاريخ ودراسـته ما تزعم أنه حقائق غائبة لتبرئة ساحة أولئك من الجرائم التي يندى لها جبين الإنسـانية، لتجعلهما في مصـاف الخيرين والصالحين الذين أسهموا في تقدم وضع الأمة وتطوير مؤسساتها ودوائرها، ولكنهـا فـي المقابـل تصـوب وابل سـهامها على شـخصية أبي طالـب رضي الله عنه لتطلـق عليه من الأحكام ما يتماشـى مع منطلقاتها ومصالحها.! وهي أقرب حالاً إلى ما قاله الشاعر:

وعينُ الرضا عن كُـلِّ عيبٍ كليلةٌ
ولكن عين السُّخطِ تُبْدي المساوِيا

وبعيداً عن كل ما تقدم فإننا لو تعرضنا إلى تحليل ودراسة شخصية ما ثم تبين لنا من سلوكها ومواقفها ميل أو تواطؤ إلى جهة ما فلن يسعنا إلا أن نحكم بتوافقها وانسجامها مع تلك الجهة، سيما في القضايا الحساسة التي ينشد إليها الرأي العام، ويتأكد الحال حين تتضافر الجهود والتضحيات لحفظ المبادئ والانتصار للقضايا والأهداف المصيرية، فكل منصف مستقيم في الفكر والمنطلق سينتهي إلى تلك النتيجة بقناعة تامة، بل هذا ما اعتاد عليه الناس باختلاف مشاربهم ومذاهبهم، فكل من يدافع عن فكر يلصق به، وكل من يحمي عقيدة تتلبس فيه، فالذي يؤيد معتقدات القدرية ينسب إليها، والذي يشجع على التصوف يوصم به، والذي يدافع عن التشيع يتهم به، وهكذا في سائر المجالات، فإنما يندفع الإنسان من قناعات يؤمن بها، فكيف إذا كان مضحياً ومتحملاً لشتى المصاعب والمشاق؟ فضلاً عما يقدمه من إسهامات جزيلة، ونصرة عظيمة، كما هو عليه أبو طالب رضي الله عنه الذي لا ينكر عليه أحد ذلك، بل أجمعوا على تفانيه وإيثاره في سبيل نصر الرسالة وحفظ مبادئها، وجميع ذلك لا يدع مجالاً للشك من أن الإسلام هو القناعة التي كان عليها طيلة حياته.

أبو طالب في سطور

حين الحديث عن شخصية أبي طالب رضي الله عنه تتراءى الكثير من الأحداث والوقائع التي ملأت صفحات التاريخ، بما فيها من مقاصد الخير والصلاح، وتوجهات البغي والضلال، فكانت تلك المرحلة مكتظة بالأحداث والمجريات التاريخية التي غيرت مسار الحراك البشري، وتركت تطويراً شاملاً على كافة صعده بجميع مستوياته وتوجهاته، فمنذ تلك اللحظة كانت للتاريخ والإنسانية ولادة جديدة تحمل من المعطيات والتغيرات أشكالاً مختلفة عن عهودها المنصرمة.

في تلك الفترة الزمنية المشحونة بالإرهاصات والتقلبات لم تكن شخصية أبي طالب رضي الله عنه غائبة أو مغمورة لا حظ لها من المواقف إلا النزر اليسير بحيث تجهل مكانتها ومنزلتها، إنما كانت شخصية متألقة ومتميزة لها حضورها الدائم والمميز في ساحة الواقع ومستجداته، فضلاً عما امتاز به من مآثر خلاقة، ونفائس كريمة قل نظيرها.

فمنذ نعومة إظفاره اتسم بخصال راقية، وخصائص خلاقة، جعلته يمتاز على جميع أقرانه، ولذا فإن أباه لم يجد من يحتضن محمداً ﷺ ويكفله أفضل منه، ولم يأت ذلك اعتباطاً منه، إنما وجده أهلاً لذلك فحمله تلك المهمة، مع علمه أنها لا تخلوا من المخاطر والصعوبات الجسام، فغدا أبو طالب رضي الله عنه يتمها على أحسن وجه، ولقد خلد بمواقفه وتضحياته أرقى معاني البطولة والعطاء طوال التاريخ البشري.

الأصل الكريم:

انحدر شيخ البطحاء وعميد الأسرة الهاشمية والزعامة القرشية أبو طالب رضي الله عنه من عبق السلالة الهاشمية الممتدة فروعها إلى شجرة النبوة ومعدن الرسالة، لتتصل أصولها الطيبة الزكية بأبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فتنطبع على وجدانه وسلوكه من مآثرها ما تصطبغ به شخصيته الكريمة، فتتسم بأرقى المعاني الخلاقة التي غابت معالمها ومثلها في ظل ذلك الواقع الجاهلي المقيت، الذي لم يألف النبل والكرامة، وسادت نظمه مزيجاً من الأعراف والتقاليد الجاهلية المتبلدة، التي غمضت عن حقوق الضعفاء والمحرومين فسلبت منهم كل شيء.

في ظل تلك الأوضاع المشينة كانت المزايا التي تألق بها أبو طالب رضي الله عنه تكشف عن شخصية تتسم بالخصال الحميدة

الفريدة، وتحتضن أخلاقيات رفيعة المستوى، في العدل والكرم والأخلاق والإنسانية.

ولا غضاضة إذا كانت تلك المزايا تلازم شخصية أبي طالب رضي الله عنه وتحتضنها، فهو فرع ذلك الأصل الطاهر الشريف، الذي لم يؤثر التاريخ عنه إلا المواقف الفاضلة، والانتصار للمثل الحقة، فهو بيت شامخ بمناقبيته وقيمه إلى عنان السماء،لم يخنع طوال تسلسله للظلم والتعسف والطغيان، بل كان منقاداً للمعاني الراقية، والأخلاقيات الرفيعة، وكفى بهذا النسب عراقة وفخراً.

ولقد كانت له الصدارة والمكانة المرموقة عند قريش وأحلافها من العرب، فآلت إليه السيادة وتسنم أمر الزعامة رغم عسره وفقره، ولم يتولى أحد السيادة قبله بلا ثراء ومال سواه، وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام: أبي ساد فقيراً وما ساد فقير قبله[1].

ويكشف أبو طالب رضي الله عنه عن هذه المكانة التي تسنمها البيت الهاشمي دون سائر الناس فأضحوا سادة قريش وزعمائها دون منازع، ففي خطبته عند تزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خديجة قال: الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام على الناس، وبارك

(١)اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

لنا في بلدنا الذي نحن به، ثم إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يُوزن برجل من قريش إلاّ رجح ولا يُقاس بأحد إلاّ عظم عنه، وإن كان في المال قلّ فإن المال رزق حائل وظلّ زائل، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة وصداق ما سألتموه عاجله من مالي، وله والله خطب عظيم ونبأ شائع. فتزوجها وانصرف(١).

المكانة الرفيعة:

نعم لقد كانت لأبي طالب رضي الله عنه مكانة مرموقة عند أبيه وعشيرته وقريش أهلته ليكون الوريث الذي تؤول إليه الصدارة بعد عبد المطلب رضي الله عنه، دون منازع من بين أخوته، فقد اكتسب سمات شخصية راقية أطلقت فيه بواعث الخير والصلاح، وزينته بالسكينة والوقار، فضلاً عما تميز به من فطنة وحكمة ودراية واسعة، إذ كان مطلعاً على الكتب السماوية وأخبارها، وهو ما جاشت به أشعاره وقصائده الرائعة، التي دأبت على المقارنة بين شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام، فلم يفتأ يذكرها ويذكر بها رسالة كسائر الرسالات السماوية:

ألا أبلغا عني على ذات بينها
لؤيا وخصا من لؤي بني كعب

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م. شرح ابن أبي الحديد، ج٧، الجزء الرابع عشر، ص٥٦.

ألــم تعلموا أنــا وجـدنـا محمـداً
نبياً كموسى خط في أول الكتب

وفي موضع أخر يخاطب ملك الحبشــة ليشـيد بهذه النبوة المرســلة وهو خبير بمعالمها وحقائقها الهادية، التي اشـرأبت به كل جارحــة من جوارحه الجياشــة، فتنســاب الكلمـات من بين ثناياه كقطر الندى، تفوح بأريج الشذى العطر، لتكشف مضامين الدعوة وحقائقها الكبرى، فتنشأ العبائر المحكمة، مسددة بروح الغيب والقدس:

تعلم مليك الحبش أن محمـدا
نبي كموسى والمسيح بن مريـم
أتــى بـهـدى مثل الــذي أتـيـا بـه
فـكل بأمر الله يهدي ويعصـم
وإنــكــم تتلونـه فــي كتابـكم
بصدق حديث لا حديث المبرجم
وإنـــك مـا تأتيك منـا عصابة
بفضلك إلا عـــاودوا بالتكـرم
فـلا تجعلـوا لله نــدا وأسلموا
فـإن طريق الحق ليـس بمظلـم

وفيمـا ورد من نظم بديع دل على رسـوخ عقيدة متجلدة، وإيمـان كبير، فتق غياهب الظلم، فانبلجت منه عبق النور، لتضع

النقاط على الحروف، فتتجلى آيات الحقيقة الخالدة مشرقة ساطعة على واقع الحياة:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمد
من خير أديان البرية دينا

وليس من ريب أن كل ذلك ينبئ عن المكانة المتميزة والخصال الراقية التي انطبعت بها شخصية شيخ البطحاء، ومدى إحاطته بالأسرار الغيبية ومقاصدها القيمة التي عجز عن فهمها وإدراكها الكثير من الناس.

النسل الطالبي امتداد وعطاء:

وكما كان أبو طالب رضي الله عنه منعة وحصانة لمسيرة الدعوة والرسالة يذود عن حياضها الرفيع أذى قريش الكافرة وجرائمها النكراء، ويصد هجماتها العدوانية الشرسة، ما جعلها تخشى أن تقدم على أمر متهور يعرضها لإثارة غضبه، فتحسب حساباً لكل فعل، فقد كان أبناؤه من بعده أكبر معيناً لمؤازرة حركة الدعوة ونهضتها الميمونة، وقد قدموا من التضحيات والبطولات ما لا يحصى أو يقارن، وأضحت إنجازاتهم وعطاءاتهم في سبيل المبادئ والقيم الحقة خالدة مدى الدهر، لا ينكرها إلا الذين تلوثت نفوسهم بالعصبيات والأحقاد الجاهلية.

هذا فضلاً عن منزلتهم ومآثرهم الراقية التي تميزوا بها

طوال تاريخ الأمة، لا اقتصاراً على صعيد دون آخر، إنما على جميع الأصعدة، فلم يتوانوا في أي أمر من أمور الدين، ولم يبدوا ضعفاً أو تضجراً، رغم ما جرى عليهم من مآسي ومحن، بل كانوا أكثر إقداماً وبسالة في أحلك ظروف الدعوة وواقعها الصعب، ناهيك إنما ادخروا لتلك المنازل العصيبة التي أظهرت عجز الكثيرين عن تحملها، فبقت تلك الصفحات المشرقة الوضاءة ناصعة على بوابة الحياة، لتلهم الإنسانية مزيداً من العطاء والتضحية والبطولة والفداء.

ورغم المسيرة الشاقة والطويلة التي تعاقبت على حركة الدعوة والرسالة لإعاقة انتشارها واستمرارها في ربوع الأمة، فضلاً عما ابتكر من وسائل وسبل عدوانية لطمس مبادئها ومعالمها، لم يسر الوهن والتقهقر عند البيت الطالبي، بل كان أكثر اندفاعاً وانطلاقاً كلما طال السجال واتسعت رحى الصراع الدائر، لتؤسس أرقى معاني التفاني والإخلاص، فقدم خيرة أبناءه الصالحين لتصان قيم الدين وتحفظ معالمه الأصيلة.

وعند القراءة السريعة لصفحات التاريخ تتجلى الملاحم البطولية الجهادية التي خاضها الطالبيون طوال العهود الإسلامية ليرووا بدمائهم الزكية شجرة الدين الحنيف، ولتبقى رايته خفاقة على مدى الزمان، وقد أورد بعض الأعلام كتاباً منفرداً جمع فيه تراثاً نفيساً حوا الذين قتلوا من الطالبيين بتوثيق روائي وتاريخي

دقيق، وقد أسهب في الحديث عند التعرض لذكر كل علم منهم، وتناول المجريات والأحداث الدامية التي وقعت عليهم خلال الحكم الأموي والعباسي بشيء من التفصيل، وجاء عنوان الكتاب يخبر عن حالة لم تنفك عن البيت الطالبي، -مقاتل الطالبيين- فغدوا رهن ذلك الواقع المرير(١).

(١) راجع مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.

أبو طالب في رحاب الحديث

إزاء التشويه الكبير والانتقاص المستمر الذي تعرضت له شخصية أبي طالب رضي الله عنه وما مارسه الخط المناوئ طوال مراحل تاريخ الإسلام، كان أهل البيت عليهم السلام لا يتوانون في الدفاع عن المكانة التي بلغها شيخ البطحاء، ليس لأنه قدم تلك التضحيات والبطولات الرائعة فحسب، بل انطلاقاً لما للرجل من حقوق وخصائص تميز بها دون غيره من الناس، وكشفاً للحقائق والبراهين الناصعة.

فإزاء ما ورد من اتهامات تنقض على إسهامات شيخ البطحاء وإنجازاته المهمة في تلك المرحلة العصيبة التي مرت بها حركة الدعوة والرسالة، جاءت شهادة أهل البيت عليهم السلام الوثائقية لإخراس تحركات الخصوم وإبطال مزاعمهم وافتراءاتهم البغيضة، وكاد الخصوم أن يتلاعبوا بتوجهات الرأي العام ويعبثوا بالحقائق والرؤى، غير أن حركة الإمامة تصدت بكل قدراتها لإفشال تلك المشاريع المغرضة.

كما لم يكن الدافع الذي نهض به أهل البيت عليهم السلام في إيضاح الحقائق وفضح الزيف والتشويه الذي نال من أبي طالب رضي الله عنه نزعة القرابة وأواصر النسب التي قد ينشد إليها الكثير من الناس حين تتقد في أعماقهم الحمية والعصبية للعشيرة والعرق، بل ترسيخ للمعايير الحقيقية التي تقرأ ملامح الشخصية ومكتسباتها، بعيداً عن الميول للأهواء والانتماءات العرقية وما إلى ذلك، انطلاقاً من الارتهان لوحي القرآن ومفاهيمه الأصيلة التي أبت إلا أن تحفظ مكانة الإنسان وما يقدمه من إنجازات خيره، حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١].

وقفة تساؤل:

من الضرورة بمكان إزاء القضايا الحساسة والملحة أن تثار مجموعة من التساؤلات والاستفسارات لتتكشف الحقائق المبهمة والغائبة فتتضح الأمور لكافة الباحثين والمتحيرين، وقد يكون ذلك هو الأسلوب الأفضل والأقرب لتحقيق نتيجة علمية توفيقية تسترضي سائر الأطراف، وما نحن بصدده في أمس الحاجة لذلك، سيما وقد ناله من التشويه والتشكيك ما ندر أن يلقاه أحد من المقربين من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف صح أن يكون

(١) سورة المائدة، الآية ٨.

الحليف الأقوى والمؤازر الكبير للدعوة والرسالة الذي تحمل شتى صنوف الأذى، وجرى عليه من المحن والمصاعب أضعاف ما كابده المنتمين للدعوة، في الصف المناوئ والمعادي، فتسلب منه تضحياته ومواقفه العظيمة، بدعوى مفتعلة، وحجج واهية، لا تستقيم لموازين العقل والبرهان.

ثم إذا كان أبو طالب رضي الله عنه كما صوره الخصوم لم يتخل عن عقيدته ولم يفارق دين أجداده خشية أن يقال أنه ترك ملة آباءه وأسلافه، فماذا كانت عقيدتهم غير الحنفية الإبراهيمية التي دانوا لها ولم يتخلوا عنها؟

وإذا صح ذلك الزعم فكيف أصبح موته وموت خديجة رضي الله عنها عاماً للحزن عند المسلمين؟ وهل يحزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه جمهور المسلمين على موت كافر أو مشرك؟ والقرآن الكريم حين يتحدث عن قضية القرابة والعشيرة يجعل المعيار على أساس الإيمان، لا الروابط الأسرية أو القبلية والعشائرية، يقول تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١].

(١) سورة المجادلة، الآية ٢٢.

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل يجل عمه ويظهر له الود والتقدير لما قدم من تضحيات وإنجازات فريدة، قل أن يكون لها نظير، ولقد سجل أرباب السير في معاجمهم وتراجمهم المواقف المتعددة التي كشفت عن هذه العلاقة الحميمة، ويذكر المحب الطبري في محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعقيل بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال له: يا أبا يزيد إني أحبك حبين، حباً لقرابتك مني، وحباً لما كنت أعلمه من حب عمي إياك(١). فتتضاعف محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعقيل رضي الله عنه لمكانة عمه ومنزلته، وذلك يرمز إلى شيء كبير أكثر من مجرد الوفاء والإحسان.

ومن الأمور التي ينبغي التأمل فيها والوقوف عندها طويلاً، وقراءتها بتؤدة وتمعن هو لم أبقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة بنت أسد رضي الله عنها التي تبين إسلامها للدعوة منذ فجرها الأول زوجة لعمه الذي كان متردداً في إعلان إسلامه؟ مع العلم أن حكم التفريق بين المسلمة والمشرك لم يداهن سائر الصحابيات، بل لم ترد في سيرة الرسالة قضية مشابهه؟ فهل هي المحاباة أو الغض عما لا يستساغ السكوت عنه في مثل هذا المورد، أم ماذا؟

والحق أن عقيدته واضحة لا تحجبها أستار الزيف والتدليس، مهما حاولت الأطراف المناوئة الإغماض عنها، أو

---

(١) الطبري، محب الدين أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص٢٢٢.

تغييبها عن الواقع، وفي خضم هذا السجال الدائر روي أن علي بن الحسين عليه السلام سئل عن هذا -يعني عن إيمان أبي طالب- فقال: وا عجباً إن الله تعالى نهى رسوله أن يقرَّ مسلمة على نكاح كافر وقد كانت فاطمة بنت أسد من السّابقات إلى الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات(١).

وكيف كان ناصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأكبر وكافله العطوف غير معتنق للرسالة؟ وهو الذي لم يبق إجارة مطعم بن عدي له إلا لدخول مكة والطواف بالبيت الحرام، حيث ينقل التاريخ إنه لما فرغ من طوافه وسعيه جاء إلى مطعم، فقال: أبا وهب! قد أجرت وأحسنت، فردَّ عليَّ جواري.

قال: وما عليك أن تقيم في جواري؟

قال: أكره أن أقيم في جوار مشرك أكثر من يوم.

قال مطعم: يا معشر قريش إن محمداً قد خرج من جواري(٢).

وقد كان أحوج ما يكون لها، بعد أن كشرت قريش عن أنيابها فأظهرت أحقادها وإضغانها بعد موت أبي طالب رضي الله عنه،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٥، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٨٠.

(٢) العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٩، ص٨، مؤسسة أهل البيت، هـ١٤١٠، ١٩٨٩م.

غير أنه لم يفعل، لكنه كان يستظل بحمى عمه ويستعين بنصرته، ولم يزل في كفالته حتى خرج من الدنيا.

وعود على بدء إذا كان أبو طالب رضي الله عنه آثر عقيدة قومه ولم يتخل عنها كما زعم من توهم فطاش به الوهم، على ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما الذي جعله متسامحاً مع دعوته؟ ولم نره يبدي رفضاً واستنكاراً لمبادئه التي خالفت عادة قريش وتقاليدها وطقوسها؟ فضلاً أن التاريخ لم يدون واقعة أو حدث ينم عن امتعاض واعتراض في خصوص ذلك، بل على العكس من ذلك تماماً بشهادة الجميع، إذ لم يرد ما يدل على تكذيبه ونقضه لنواميس الرسالة وشريعتها، بل ورد منه التصديق والتفاني على ذلك.

ثم كيف ترك لأبنائه الحرية المطلقة في اعتناق هذا الدين دون أن ينكر عليهم ذلك؟ أو يبدي مخالفته وعدم رضاه؟ والحال أنه كان يدفعهم ويحضهم على التمسك والالتزام بدين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يرد في صفحات السير التاريخية أنه نهى أبناؤه قط، أو صدهم عن الاستجابة والانسجام لتلك الدعوة، بل ورد أنه لما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليا عليه السلام يصلي خلفه عن يمينه -وكان معه ولده جعفر- قال لجعفر: صل جناح ابن عمك، فصلى عن يساره. فغمرته السعادة والسرور، فأنشأ يقول:

إن علياً وجعفرًا ثقتي
عند ملم الزمان والنوب

لا تخذلا، وانصرا ابن عمكما
أخي لأمي، من بينهم، وأبي
والله لا أخذل النبي، ولا
يخذله من بني ذو حسب

وورد أن أبا طالب رضي الله عنه قال لعلي عليه السلام: ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

قال: يا أبت آمنت بالله وبرسوله وصليت معه.

فقال: أما أنه لا يدعونا إلا إلى الخير فألزمه[1].

وفي شرح النهج لابن أبي الحديد أورد: روي عن علي عليه السلام أنه قال: قال لي أبي: يا بني الزم ابن عمك، فإنك تسلم به من كل بأس عاجل وآجل، ثم قال:

إن الوثيقة في لزوم محمد
فاشدد بصحبته على أيديكا[2]

ولنعم ما قاله المعتزلي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة مبيناً تلك العقيدة الأصيلة التي اتسم بها أبو طالب رضي الله عنه

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج١، ص٥٨٣، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م. وفي السيرة الحلبية، ج١، ص٣٨٥، باختلاف يسير: يا أبت آمنت بالله ورسوله، وصدقت ما جاء به، ودخلت معه واتبعته، فقال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٦٠، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

ومدى مؤازرته العظيمة للنبوة، التي لم تقتصر عليه فحسب، وإنما مضى عليها أبناؤه الكرام، فيشيد بتلك المواقف الرائعة والخالدة، قائلاً:

ولو لا أبو طالب و ابنه لما
مثل الدين شخصا فقاما
فذاك بمكة آوى وحامى
وهذا بيثرب جس الحماما
تكفل عبد مناف بأمر
وأودى فكان علي تماما
فقل في ثبير مضى بعد ما قضى
ما قضاه وأبقى شماما
فلله ذا فاتحا للهدى
ولله ذا للمعالي ختاما
وما ضر مجد أبي طالب
جهول لغا أو بصير تعامى
كما لا يضر إياة الصباح
من ظن ضوء النهار الظلاما(١)

إن كل ذلك يدعو للتريث والتمعن من إطلاق سلسلة من الأحكام والاتهامات على عواهنها دون اللجوء إلى الحكمة والغاية

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٦٧، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

التي ابتغاها النبي ﷺ مع عمه وناصر دعوته، ولعل من أبرزها أن تبقى روابط العلاقة قائمة مع قريش، ليستمر معها الحوار، ويبقى أبو طالب رضي الله عنه يمارس مهام الدعوة بخفاء وتكتم، وفي هذا السياق ورد عن الحسين بن أحمد المالكي، عن أحمد بن هلال، عن علي بن حسان، عن محمد قال: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام: إن الناس يزعمون أن أبا طالب في ضحضاح من نار.

فقال: كذبوا ما بهذا نزل جبرائيل على النبي ﷺ.

قلت: وبما نزل؟

قال: أتى جبرائيل في بعض ما كان عليه، فقال: يا محمد أن ربك يقرئك السلام ويقول لك إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الكفر فآتاهم الله أجرهم مرتين، وإن أبا طالب أسر الإيمان وأظهر الشرك فآتاه الله أجره مرتين، وما خرج من الدنيا حتى أتته البشارة من الله تعالى بالجنة، ثم قال: كيف يصفونه بهذا وقد نزل جبرائيل ليلة مات أبو طالب، فقال: يا محمد أخرج من مكة فما لك بها ناصر بعد أبي طالب[1].

ورغم ذلك فقد لقي هذا الأمر طوال التاريخ من التشويه

---

(١) النقدي، الشيخ جعفر بن محمد، مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب رضي الله عنه، ص٩١، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م. شرح ابن أبي الحديد، ج٧، الجزء الرابع عشر، ص٥٦. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٨٠.

والتلاعب ما يؤسس ذلك الاعتقاد السائد الذي اندفع بكل مؤهلاته وقدراته ليحقق تلك النتيجة، بل لعله لم يندفع في قضايا أخرى لها علاقة بالمصير ومستقبل الأمة ورهاناتها الحرجة آنذاك كهذه المسألة.

وعلى ضوء افتعال تلك الضوضاء والقلاقل التي سعى لتكريسها المؤلبون في عمق ثقافة الأمة وفكرها الأصيل، لتغييب الحقائق من ذاكرتها وتراثها، انبعثت حركة الإمامة لتنقض تلك المزاعم الباطلة، وتدحض توجهاتها الهدامة، وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عما يقوله الناس: إن أبا طالب في ضحضاح من نار، فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان، وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.

ثم قال: ألم تعلموا: أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحج عن عبد الله، وابنه وأبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته بالحج عنهم[1].

ورغم أنه لا يخفى مدى التهافت والتناقض في مدلول وسياق حديث الضحضاح باعتباره عمدة القائلين بكفر أبي طالب رضي الله عنه، فإنه لم يسلم من الشبهات والمؤاخذات كونه وارد

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٥، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٨٠.

عن المغيرة بن شعبة الواضح بغضه لبني هاشم، وعداوته لعلي بن أبي طالب عليه السلام، فضلاً عن فسقه ومجونه واستهتاره بمعالم الدين، غير أنه إذا افترض صحة الصدور فلماذا اقتصر إشفاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعمه في حدود زحزحته من درجة لأخرى دون تخليصه من تلك الأهوال؟ وهو الشفيق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤازر لدعوته ورسالته، فهل يصح أن تكون شفاعته بهذا القدر البسيط جداً؟ ثم ما الذي يجعله في ضحضاح يرديه في الدرك الأسفل من النار، ولم تكن جنايته إلا أنه حفظ ابن أخيه وأحاطه بعنايته ورعايته، وحجب عنه تغول قريش وطغيانها، ولم يلق منه إلا المحبة والإشفاق طيلة حياته، وأخيراً هل تستساغ شفاعته ومودته لكافر استحق أن يكون من سكان جهنم بحكم جبار السماوات والأرض؟

وثمة حقيقة في نشوب المعركة السجالية المستعرة من قبل الخصوم والمؤلبين، ألا وهي إعدام الحقائق وطمس معالمها وأثارها بما توفر من وسائل وإمكانيات للنيل من أسسها والسعي للإطاحة بمواردها ومكوناتها الأصيلة، ولم تكن هذه القضية الوحيدة في أجندة الاحتراب السجالي، إنما لها نظائر مفتعلة، اعتمدت التشويه والتضليل لصرف النظر عن الانشغال والاهتمام بقضايا الأمة وأوضاعها المأزومة، بيد أن التوجهات السياسية أساس تكريس النزعة الاختلافية بين الشرائح الاجتماعية والإنسانية، إلا أن الأمر لا يخلو من المتطفلين والمصلحيين

الذين تشبعوا بالحقد والكراهية، وهم همزة الوصل في التطبيل لإذكاء نار الفتنة بين المسلمين وقرع ناقوسها.

منشأ المزاعم والافتراءات:

ولقد كان أساس هذه الفوضى التي انتشرت بين المسلمين النظام الأموي الذي ابتكر من الوسائل والآليات ما يواجه به رسالة أهل البيت عليهم السلام فعمد إلى زعزعة أوضاع المسلمين وتهديد أمنهم واستقرارهم، ولم يدع أمراً من أمور الدين إلا وعمل على تشويهه والتلاعب بركائزه، حتى راجت الأحاديث الموضوعة في الأمصار المسلمة، وأسرف بنو أمية في البدل والعطاء لتحقيق تلك الغاية، واتبعوا كل سبيل غير مشروع للإغارة على معاني الدين الأصيل، بل أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث عمدوا إلى ضرب المعايير الحقيقية حسب ما تملي عليهم أهوائهم ومصالحهم، فمن مالوا إليه ألبسوه من الجلالة والقداسة ما يستعصى إدانته ونقده، ومن خالفوه جردوه من كل شيء.

وهكذا كان الأمر مع أهل البيت عليهم السلام فقد جهدوا لإقصائهم عن مكانتهم، وتغييب معالمهم ومآثرهم من أجندة الأمة وذاكرتها، ولولا ما تمتعت به مدرسة أهل البيت عليهم السلام من مؤهلات وقدرات خلاقة لما بقي حجر على حجر، لم بثوا وأشاعوا من ثقافات وعقائد مسمومة في حاضر الأمة، وجاء عن

الإمام السبط الحسين بن علي عليه السلام عن والده أمير المؤمنين عليه السلام إنه كان جالساً في الرحبة والناس من حوله، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إنك بالمكان الذي أنزلك الله وأبوك معذب في النار.

فقال له عليه السلام: مه، فض الله فاك، والذي بعث محمداً بالحق نبياً لو شفع أبي في كل مذنب على وجه الأرض لشفعه الله، أأبي معذب في النار وابنه قاسم الجنة والنار؟ والذي بعث محمداً بالحق أن نور أبي طالب يوم القيامة ليطفئ أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار: نور محمد ونور فاطمة والحسن والحسين ونور ولده من الأئمة، ألا إن نوره من نورنا خلقه الله من قبل خلق آدم بألفين عام[1].

وقد كتب أبان بن محمود إلى علي بن موسى الرضا عليه السلام: جعلت فداك إنِّي قد شككت في إسلام أبي طالب. فكتب إليه: ومن يشاقق الرَّسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين.. الآية، وبعدها إنَّك إن لم تقرَّ بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النَّار[2].

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٨٧، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٥، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٨١.

وقد أورد ابن أبي الحديد في شرح النهج: قالوا: وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أنه كان يقول: أسلم أبو طالب والله بقوله:

نصرت الرسول رسول المليك
ببيض تلألأ كلمع البروق
أذب وأحمي رسول الإله
حماية حام عليه شفيق
وما إن أدت لأعدائه
دبيب البكار حذار الفنيق
ولكن أزير لهم ساميا
كما زار ليث بغيل مضيق(١)

عود على بدء:

ولا ريب أن الحديث استفيض في إيمان أبي طالب رضي الله عنه وقد تبين مما مر موقف أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من إيمانه وصحة عقيدته، فوضوحه كالشمس في رابعة النهار، أما جمهور المسلمين فإنهم اختلفوا في ذلك، فطائفة ذهبت إلى أنه مات ولم يتشهد الشهادتين كراهة أن يتخلى عن دين أشياخه، وتوقف عنده جماعة دون الجزم بالكفر أو الإيمان، مع حفظ مكانته ونصرته،

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٩، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

وذهبت طائفة ثالثة إلى القول بإيمانه، وقد تناول العلامة الأميني قدس سره ذكر عدد منهم، انتهوا إلى الإنصاف، وقد سجلوا ذلك في بحوثهم وكتبهم، كالبرزنجي في أسنى المطالب، وأحمد بن الحسين الموصلي الحنفي، المشهور بابن وحشي، في شرحه لكتاب شهاب الأخبار، لمحمد بن سلامة القضاعي المتوفي ٤٥٤: حيث أورد إنَّ بغض أبي طالب كفرٌ، ونص على ذلك من أئمة المالكية الأجهوري في فتاويه، والتلمساني في حاشيته على الشفاء، وكذلك الكثير من العلماء والمحققين كالقرطبي والسبكي والشعراني وغيرهم(١).

وقد أورد ابن أبي الحديد في شرح النهج قال: قلت كان صديقنا علي بن يحيى البطريق رحمه الله، يقول لولا خاصة النبوة وسرها لما كان مثل أبى طالب -وهو شيخ قريش ورئيسها وذو شرفها- يمدح ابن أخيه محمداً، وهو شاب قد ربى في حجره وهو يتيمه ومكفوله، وجار مجرى أولاده بمثل قوله:

وتلقوا ربيع الأبطحين محمداً
على ربوة في رأس عنقاء عيطل
وتأوي إليه هاشم، إن هاشماً
عرانين كعب آخر بعد أول

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٨٢،٣٨١، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.

ومثل قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمه للأرامل
يطيف به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذنابي من الناس، وإنما هو من مديح الملوك والعظماء، فإذا تصورت إنه شعر أبى طالب، ذاك الشيخ المبجل العظيم في محمد ﷺ، وهو شاب مستجير به، معتصم بظله من قريش، قد رباه في حجره غلاما، وعلى عاتقه طفلاً، وبين يديه شاباً، يأكل من زاده، ويأوي إلى داره، علمت موضع خاصية النبوة وسرها، وإن أمره كان عظيماً، وإن الله تعالى أوقع في القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً(١).

وكذلك ساق الحديث في مورد الإيمان بذكره: وقد روي بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب، وبعضها عن أبي بكر بن أبي قحافة، أن أبا طالب ما مات حتى قال لا إله إلا الله محمد رسول الله. والخبر مشهور أن أبا طالب عند الموت قال كلاماً خفياً، فأصغى إليه أخوه العباس، ثم رفع رأسه إلى

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٠،٥١، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

رسـول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا بن أخي، والله لقد قالها عمك، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته.

وروي عـن علـي عليه السلام أنه قـال: ما مات أبـو طالب حتى أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نفسه الرضا[1].

وبعـد كل ذلـك فإننـا إذا قصدنـا الانتهـاء إلـى الحقائـق وكشـف براهينها النيرة في الوصول إلى معرفة حقيقة من حقائق الديـن، أو رؤيـة مـن رؤاه المتألقـة، فينبغـي أن نذعـن للمعايير البحثيـة القائمـة على أسـاس الدراسـات الموضوعيـة النزيهة، دون أن نشـرك الميولات والتوجهات والموروثات العصبية بما تحمل من رواسب وتشنجات، لا أصل لها في منظومتنا الفكرية المسلمة، ويكون منطلق الحوار على أساس ما يتجلى من حقائق تستأنس لها الفطرة الإنسانية النظيفة ومنطلقاتها النزيهة، ونكون على أرقى درجـة من الحذر من الأفكار المشـوهة والمنطلقات المغرضة التـي لا تبتغي الخير والصلاح للواقع المسـلم، فديننا وقيمنا ليس رهن للخرافات والأسـاطير التي ما أنزل الله بها من سـلطان، إنما هـو دين العقـل والحجة الـذي لا يخضع للأهواء والمهاترات الساذجة، التي لا تمت للدين ومنابع وحيه بصلة، من هذا المنطق وضمن هذا السـياق ينبغي أن نجدد صياغة أفكارنا،

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٦،٥٧، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

ونصحح مساراتها لتتفتح بصائرنا فنقرأ التجربة التاريخية بتمعن ووعي.

ملامح من شخصية مؤمن قريش

في الوقت الذي كان الكفر والشرك يخيم بأجنحته الظلامية على مناطق شاسعة من بلاد العرب وما جاورها ولا تسودها إلا مناهجه، لتساق شعوبها إلى طقوس عبادية بالية، تتمرغ الجباه والنواصي تقرباً للأصنام والأوثان، لتقترف أبشع صور الجرائم والفواحش المنكرة، فتطبق الثقافة الجاهلية بكل معانيها على المقدرات والمنطلقات الحياتية، في ذلك الجو المتلبد بغيوم الظلمة والجهل، كان أبو طالب رضي الله عنه من الذين استناروا بأنوار الهداية واكتسبوا من أشعتها معاني الخير والصلاح، فانعكس ذلك على جوهر روحه، وأسس أفكاره وتوجهه، فكانت كل اقتباساته مبدعة وحكمة وضاءة تنبع من ذلك المعين الرافد.

عند عرض التاريخ لقراءة شخصية أبي طالب رضي الله عنه تتجلى تلك الملامح التي تتسم معالمها بالشفافية والوداعة، وإذا أسبرنا غوراً في محيط مآثره وأخلاقياته، فسنقف على كنوز مما لديه من نبل وكرامة وشهامة، فبرغم الظروف الخانقة

التي اعترضت مشوار كفاحه، إلا أنه الصابر القنوع الراسخ على مبادئه وإنسانيته، ولعل باستطاعته أن يتحصل على المكاسب لما كان له من منزلة مرموقة بين قريش والعرب، غير أن التاريخ لا يؤثر عنه إلا المواقف الكريمة، التي اشرأبت رحمة وإنسانية، لا اقتصاراً على ما نشأ في حلف الفضول لجعل تلك الراية خفاقة على رؤوس الضعفاء والمحرومين، إنما متابعة وقراءة لكافة خطواته الحياتية.

وبرغم ما يحتضن من عقل كبير يجعله في مصاف الحكماء لروعة منطقه وعذوبة أفكاره، إلا أنه المتعلق بأستار الغيب والمؤمن ببركة السماء، فكل مفردة تاريخية، وكل جولة حياتية، كانت إشارة بارقة تفضح إيمانه الراسخ، وإنسانيته الخلاقة، وسنجد أن التاريخ لا يبخل علينا عند تصوره لهذه المآثر العبقة، التي انساقت بين صفحاته ومفرداته لتتبين مكونات هذه الشخصية العملاقة، وما احتضنت من روائع بديعة تزيل الغموض والأوهام المتكلسة بعقلية المتجنين والتائهين.

ثم إذا كان التراث هو الفصل القاطع في تأسيس منظومة الأحكام وفقه الوقائع والأحداث، فإن ما يسترسل بين أيدينا من وثائق وبراهين مطردة تفوق التصورات، توصلنا إلى حقيقة صادقة تفوح بأريج الإيمان والطهارة، ولعل جلّ ما أسرد تاريخياً احتضن معالم تلك الحقيقة الضائعة، التي أعطت انطباعاً شاعرياً

شفافاً يتمترس بالإيمان والهدى، ويستل من ينابيعها ومعينها مفردات الصدق والأصالة، لتنساق الكلمات العبقة بسياج إيماني متدفق، وإذا كانت الهواجس تأبى إلا أن تأسر الحقائق وتحجب أشعتها لأنها منتسبة إلى عقائد الآخر وشعائره وأمهات مصادره، فينبغي أن تزول إذا كانت مستقاة من أمهات مصادر المسلمين الموثقة، وهي في متناول الجميع لمن يقصد اصطياد الحكمة والحقيقة.

وبيد أن المزاعم والافتراءات المثارة إزاء شخصية شيخ الأباطح رضي الله عنه اتخذت مسارات متشعبة ومختلفة، غير أنها لا تجد ما يعينها على إنكارها وصدها إلا بعض المفردات الواهية الركيكة، التي لا تنهض بالحجج والبراهين، أمام السيل الهائل من الوثائق التاريخية والنصوص الدينية، التي تكشف بمدلولاتها ومعانيها عن إيمان راسخ لم يطرأ على شخصية مؤمن قريش، بل دأبت على هذا الحال منذ النشأة دون انقطاع، فلم يكن المنهج غامضاً أو مبهماً لديه ليتخذ مسارات واتجاهات متغايرة، بل قاصداً للهداية والحقيقة ومتبعاً لها في سائر شؤونه، فلا نجده في مواقفه وأشعاره يرمز إلى وثنية قومه السائدة على ثقافتهم وتقاليدهم، إنما كانت ترمز إلى وحدانية أصيلة، فلم تكن الآلهة وهو التعبير السائد عن الأصنام لها حضور في فكره وثقافته ومنطقه، بل الوحدانية هي أساس منشأ فكره وعطائه في أشعاره وأقواله وأفعاله.

فإذا رجعنا إلى كل ذلك يتبين بوضوح جلي أنه يتجلبب بتلك العقيدة الراسخة العصماء، المجانبة لكافة دواعي الشرك والكفر المتبعة عند قومه الجاهليين، التي لم يستأثر بسواها طيلة حياته، فضلاً عن شيخوخته وكهولته المعاصرة للمبعث النبوي الشريف، وما تركه من موسوعة شعرية رائعة تزيل كل غموض واتهام تلوث شخصيته ومكانته، وهي بمثابة تراث خصب لقراءة أفكاره ومنطلقاته ومكونات شخصيته.

إن ذلك البعد الإيماني الراسخ الذي ترجمته الأحداث بشتى صورها ومشاهدها، كانت تعكس حالة متأصلة في شخصيته العصامية، التي لم تتزعزع بمؤثرات الوضع السائد قيد أنملة، بل كانت مجانبة للتقاليد والأعراف ولم تداهن أفكارها وثقافتها، رغم انسياق الطابع العام خلف تلك الموجة الجاهلية المقيتة، وهو الأمر الذي نذر حدوثه في ظل تلك الظروف، إلا لدى القلة القليلة من الشخصيات الرائدة التي لم تعبث بقناعاتها وتوجهاتها العوامل الخارجية مهما كان لديها من قدرة وتأثير.

ثم إن كل منصف سوي -يقصد ملامسة الحقيقة واحتضان مكوناتها ولوازمها لتشرئب أعماقه الحساسة الجياشة بأشعتها ونورانيتها- يلمس من خلال الإبحار على سواحل أفكاره وحكمته عقيدة راسخة تتجلى معالمها في مطويات شعره العذب وإنسانيته الخلاقة، بل أنه حين يقف على تلك المآثر التي ملأت

أرشفة التاريخ لا يجد بداً من الإيمان والتسليم بمصداقيتها وحقيقتها، بعيداً عن كونها مرتبطة بشيخ البطحاء رضي الله عنه أو غيره، فإذا ما تخلص القارئ الكريم للتراث من النوازع والتراكمات المترسبة في أعماقه الدفينة، فلعله يصل إلى النقاط المضيئة في صفحات التراث، ليغترف من منابعها ومعينها ما يطفئ ظمأه.

وثمة حقيقة ينبغي تسجيلها في هذا السياق وإن عرضنا بعض ملامحها فيما تقدم، ألا وهي أن ثلة من حملة الأقلام الذين تناولوا دراسة شخصية أبو طالب رضي الله عنه وقراءة أفكاره ومآثره، ممن لم يجاهروا بحقيقة إيمانه وصحة عقيدته الغراء، تملكتهم هواجس الحيرة وتأسرهم الدهشة عند وقوفهم على تلك المآثر الراقية، الأمر الذي دفع بعضهم التوقف وعدم المجازفة بالتسرع في الحكم بعدم إيمانه، والبعض الآخر لم يجد بداً من إظهار قناعته بحقيقة إيمانه، وإن طويت بين صخب المعاني والحروف المتعاقبة بين السطور، وفي تاريخ أبي الفداء قال: والمشهور أنه مات كافراً، ومن شعر أبي طالب مما يدل أنه كان مصدقاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

ودعوتني وعلمت أنك صادق
ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا[1]

في موكب الإيمان والرسالة:

لا يخفى بحال من الأحوال أن أبا طالب رضي الله عنه كان أقرب الناس إلى شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ نعومة أظفاره، وكان يلحظ نشأته بعناية فائقة، ويبصر خصاله ومواهبه الخصبة تتدفق بين يديه كالسيل المنحدر، لتكتحل مقلتيه وتيمم روحه بأشعتها النورانية المباركة، ولم يكن ذلك فسحب، إنما كانت تربطهما علاقة وطيدة لا يكاد أحدهما يفارق الآخر، فلم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مجرد أبن يحتضنه أبو طالب رضي الله عنه، بل كان أكبر من ذلك بكثير، الأمر الذي استدعى مبالغة الحرص عليه وحفظه، وكما كان أبو طالب رضي الله عنه يجل تلك المكانة الراقية ويطلع على أسرارها ومزاياها الخلاقة، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقدر منزلة عمه ويحترم تضحياته وإسهاماته طيلة حياته، بل كان يكثر الثناء والترحم عليه، ولم يكن ذلك استثناء لموقف طارئ أو حدث عابر، إنما كان مسترسلاً في التوثيق لتعزيز العقيدة والبطولة والكفاح.

وإذا كان الذين انضووا تحت سلك الرسالة في بدء نشأتها

(١) أبي الفداء، المؤيد عماد الدين، تاريخ أبي الفداء، ج١، ص١٧٩، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

قد امتازوا بالمكانة المرموقة وجسدوا بمواقفهم ونضالهم الصورة المتكاملة في التضحية والفداء، فخاضوا أشد المعارك النضالية التي لا نظير لها على ضفاف الحركة الإيمانية الأصيلة، ليشحذوا بذلك السجل التاريخي بالمآثر والمناقبيته الخصبة، فإن أبا طالب رضي الله عنه قد حاز قصب السبق، إذ لم يسبقه أحد في المبادرة للنصرة والمؤازرة للرسالة، ولم ينتظر بترقب لما لها من شأن ومكانة ليندفع نحو مكاسبها، إنما أطلق تأييده وحمايته من بدء نشأتها، وتحمل المشاق والصعوبات دون اكتراث، ورغم أنها مغامرة حساسة وحرجة محاطة بالمخاطر الكأداء، غير أنه تصدى لتبنيها وتوفير الحماية لها بمرأى ومسمع من زعماء قريش.

إن كل ذلك الاندفاع الصادق الذي أبى إلا المؤازرة والنصرة للقضية الكبرى في المعترك التاريخي الفصل، لم تكن أدواته بتراء أو مشوشة ومتناقضة، لتغيب عنه ملامح الحقيقة وبواعثها الميمونة وهو في أوج المعترك يلحظ مفرداتها وفقراتها بتتبع وعناية، إنما كان بصيراً بمعالمها وروافدها، إضافة إلى أنه لم يكن شخصية مهمشة تتلاعب بأحاسيسه التوجهات والتيارات لتنطلي عليه أفكارها ومعتقداته لينساق في فلكها دون أن يدرك حقيقتها، وهو الذي اشتهر بمكانته ومنزلته، فضلاً عن رجحان عقله ومتانة منطقه، ولقد أثبتت الوقائع التاريخية مدى ما لديه من قدرة وفصاحة على المواجهة والمفاوضة بحجة

مطردة لا قدرة للخصوم على مواجهتها ودحضها، فكافة تلك المساجلات تقود إلى حقيقة انتمائه وتحقق عضويته في حركة الدعوة والرسالة، التي شاطرها في أحزانها ومآسيها.

القناعة الراسخة:

إذا كانت قريش في عهود جاهليتها تحتكم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يطرأ بين أبنائها من قضايا، وتجد فيه تجسيداً راقياً لمكارم الأخلاق، ليكون حكمه نافذاً دون منازع، فإن أبا طالب رضي الله عنه كانت رؤيته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أعمق من ذلك بكثير، إذ لم تكن قناعة سطحية لا تلامس جوهر الحقيقة التي كان عليها، بل كان موقناً بالمكانة الروحانية التي تقلدها دون سائر الناس، فيطلق عليه أروع الخصال التي اتشحت به سجايا روحه الكريمة، ولعله يوجز ذلك الاستئثار لاحتضان المآثر الطيبة بقوله: إنك لمبارك، وهو لفظ من خصب الألفاظ التي يطلقها بين فينة وأخرى ليقرب الأذهان من حقيقة المنبع الذي يتصدر عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتتدفق تلك المكارم الخلاقة بين يديه.

لم يغفل شيخ الأباطح يوماً عن تلك الحقائق النورانية التي تجلبب بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانعكست معالمها على أرض الواقع، لتؤسس رؤية وبصيرة تبدد الزيف والزور فتضع النقاط على الحروف، فكل صورة هندسها بكلماته وصاغها بألحانه هو

ما كان يلمسه من تجليات عبقة انسابت بأريحية على صفحات الوجود، ولم يكن صدورها متأخراً في القراءة والترجمة إنما كانت متزامنة لكل منقبة رائعة، لا لتكون مبالغة في الوصف والصياغة، إنما كانت تجسيداً للحقائق بما صاحبها من تجليات، ومن منطلق تلك البصائر الراقية نشأت القناعة الراسخة التي احتضن رؤاها ومعالمها ولم ينفصل عنها طيلة حياته قيد أنملة.

ورغم الإرهاصات والتكهنات التي انبعثت للنيل من رسالة الدعوة وإعاقة مشاريعها عن النمو والتقدم، فضلاً عن الاتهامات المتكررة التي كانت تطلقها قريش بدعوى زعزعة الأوضاع وتقويض سبل الاستقرار التي تنال من مرتكزاتها ومناهجها، كان أبو طالب رضي الله عنه يصوغ عقيدة راسخة تنتصر لكل مفردة من مفردات الدين ومناهجه المتقدمة، ويرسم نظمه ورؤاه ومعالمه بنشاطه الشعري، وهو الأمر الذي لم يكن غائباً أو مجهولاً على الجهات المناوئة وإن غضت الطرف عن تلميحاته وتصريحاته المتكررة، وربما كانت الأطراف الأخرى تريد أن تجري الأمور ضمن ذلك السياق لمقاصد كانت تخفيها مغبة اغتيال بواعث الرسالة أو الحصول على بعض التنازلات أو التراجعات في طريقة الدعوة ومساعيها الناهضة، إلا أنها كانت تبوء بالفشل والانكسار إزاء تلك القناعة التي لم تتزعزع لشبح الضغوطات والتنديدات المعترضة.

روائع من المشهد الإيماني:

لقد ساق المؤرخون من خلال اقتفائهم لأحداث التاريخ ودراسة ملامح وقائعه الكثير من المشاهد التي احتضنت في طياتها جملة من الحقائق، ربما درجت بعفوية دون النظر إلى حيثياتها وعمق مضامينها، ورغم المرور العاجل عليها دون دراستها وتحليلها إلا أن معطياتها أتت كترجمة وثائقية تعين المتأمل وتدفعه نحو الوصول للهدف المنشود، وما يسعى إليه لملامسة الصورة الحقيقية التي يبحث عنها، وتلك الإضاءات لا تنفصل عن شخصية أبي طالب رضي الله عنه، بل هي منسجمة كلياً مع الصور المتناثرة على صفحات التراث التاريخي الخصب، وقد وردت الإشارات المتعاقبة التي دللت على الحقيقة الإيمانية التي انعكست مآثرها على روحه، فجسدت بعداً قيمياً راقياً يتناغم مع الهداية والصلاح، ومن جملة ما أوردته السير التاريخية في الحالة التي كان عليها أبو طالب رضي الله عنه، ذكر في السيرة الحلبية حين عزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الاتجار بأموال خديجة بنت خويلد ساق الحديث بقوله: إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك. أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولقي عمه أبا طالب فذكر له ذلك. فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك، فخرج صلى الله عليه وآله وسلم مع غلامها ميسرة، وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له

أمراً ولا تخالف له رأياً[١].

ففي هذا النص التاريخي تتبين الروح الشفافة المطمئنة لعطاء الله وتأييده، وأن الرزق إنما يكون منه سبحانه وتعالى، وهو يعكس عمق الانفتاح على نافذة الغيب، وإذا كان عامة الناس قد نهلوا من كرم أخلاقه ولمسوا آثاره المباركة في كافة ممارساته ومساعيه، فكيف بأبي طالب رضي الله عنه الذي احتضنه منذ نعومة إظفاره وكان يتطلع إلى سجاياه وخصاله ويحصي مناقبه وفضائله بدقة متناهية، وكان أبو طالب رضي الله عنه يحدث عن مشاهداته وما يأخذ بإعجابه من شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: لقد كنت كثيرا ما أسمع منه إذا ذهب من الليل كلاماً يعجبني، وكنا لا نسمي على الطعام، ولا على الشراب، حتى سمعته يقول: بسم الله الأحد، ثم يأكل، فإذا فرغ من طعامه، قال: الحمد لله كثيراً. فتعجبت منه، وكنت ربما أتيت غفلة فأرى من لدن رأسه نوراً ممدوداً قد بلغ السماء، ثم لم أر منه كذبة قط، ولا جاهلية قط، ولا رأيته بضحك في غير موضع الضحك، ولا مع الصبيان في لعب ولا التفت إليهم، وكانت الوحدة أحب إليه والتواضع[٢].

لقد كانت هذه النظرة هي الأساس الذي يحكم العلاقة

(١) الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج١، ص١٩٣، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣٥.

الوطيدة بين أبي طالب وابن أخيه ﷺ، التي لم تشبها شائبة أبداً، بل كانت تكبر يوماً بعد يوم، لما يتجلى له من آيات الحقيقة التي توالت بانعكاساتها وتجسيدها على ظهر الواقع، فيرى فيها المثل الخلاقة التي تكافح الشرور والطغيان في طبيعة العلاقات الإنسانية، وتمهد الأرضية الصالحة بمكوناتها ولوازمها لبناء علاقات حميمة بين أبناء البشر، تترفع على الثقافات والتقاليد المتبلدة السائدة آنذاك، وأورد في السيرة الحلبية قال: روى أبو طالب عن النبي ﷺ قال: حدثني محمد أن الله أمره بصلة الأرحام، وأن يعبد الله وحده ولا يعبد معه غيره[1].

وتارة أخرى نجده وهو يدفع أوهام الحاقدين وتشويههم لشخصية النبي ﷺ التي لم يكن غير مستسيغ لها فحسب، إنما يمقتها بكل ما اشرأبت به أعماقه من أحاسيس، ومن جملة ما يعرضه التاريخ أن النبي ﷺ لما تزوج من خديجة رضي الله عنها سيدة قريش وخيرة نسائها، اغتاظ بعض السادة والوجهاء من هذه الزيجة الميمونة المباركة، فأخذ بهم الحسد مأخذاً عظيماً، وهم الذين امتدت أطماعهم بالأمس القريب للفوز بوصلها، غير أن النبي ﷺ بدد أطماعهم وأطفأ أحلامهم الوردية، ناهيك أن الموتورين أصعقهم الحدث وخيب آمالهم، ودون أدنى شك فإن

(١) الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج١، ص٤٩٦، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

ذلك سيدفعهم للنيل من شخصيته ﷺ، ثم أن جنود الحسد والضغينة ستستدعي التماس الوسائل التأليبية لتشويه مكانته، وتذكر السير التاريخية أنه حالما ترددت أنباء اقتران النبي ﷺ بخديجة رضي الله عنها وإذا بهم يستهزئون من النبي ﷺ، فلما سمع أبو طالب رضي الله عنه مقالتهم وشماتتهم بابن أخيه لم يدعهم دون تمريغ أنوفهم وهجائهم، فروي أنه قال بعض قريش: يا عجبا أيمهر النساء الرجال، فغضب أبو طالب وقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلى الأثمان، وإذا كانوا أمثالكم لم تزوجوا إلا بالمهر الغالي، فقال رجل من قريش يقال له: عبد الله بن غنم:

هنيئاً مريئاً يا خديجة قد جرت
لك الطير فيما كان منك بأسعد
تزوجته خير البرية كلها
ومن ذا الذي في الناس مثل محمد؟
وبشر به المرءآن عيسى بن مريم
وموسى بن عمران فيا قرب موعد
أقرت به الكتاب قدماً بأنه
رسول من البطحاء هاد ومهتد[1]

وبيد أن ما جاشت به الأحاديث الصحيحة والمصادر

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج١٦، ص٦، مؤسسة أهل البيت، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

التاريخية الموثوقة ينبئ عن تلك العقيدة العصماء التي كان عليها شيخ البطحاء، التي لم يتخل أو يتنازل عنها قيد أنملة، وبذل في سبيلها كلما في وسعه من تضحية وفداء لشد أزرها، فإنه أسس طريقة متقدمة تجاوزت كافة الظروف القهرية وما تستتبع من جور واستبداد للانقضاض على مشروع الدعوة والرسالة، غير أن تلك المناورات كانت بمثابة إعاقة لمساعي قريش وخططها للإطاحة بقيم الدين وتقويض تعاليمه السمحة، وفصل الخطاب ما ورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام جاء فيه: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إني قد أيدتك بشيعتين: شيعة تنصرك سراً، وشيعة تنصرك علانية، فأما التي تنصرك سراً فسيدهم وأفضلهم عمك أبو طالب، وأما التي تنصرك علانية، فسيدهم وأفضلهم ابنه علي بن أبي طالب، ثم قال: وإن أبا طالب كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه[1].

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٩٥، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ ١٩٦٩م.

مقتطفات من ذاكرة التاريخ

اتسمت شخصية النبي ﷺ منذ مولده المبارك بخصال فريدة كشفت عن مكانته العظيمة وما يتسم به من منزلة مرموقة، ومنذ الولادة ظهرت بوادر هذه المكانة إذ كانت آثار البركة والكرامة تصحب أثره في حله وترحاله، وكل من كان يتمتع بقليل من الحدس والفراسة كان يلمس تلك المآثر المتميزة، ولم يكن أبو طالب رضي الله عنه في معزل عن تلكم الشواهد والصور الرائعة التي تتابعت مع نشأة ابن أخيه، بل كان يرقبها لحظة بلحظة، فيرى فيه البشرى المرتقبة والنبوءة الصادقة، فتملأ أعماقه ووجدانه البهجة والسرور.

وإذا كان لحاضنة النبي ﷺ ومرضعته التشرف برؤية تلك المآثر الكريمة، فينعم بها أهلها وعشيرتها، فكيف لعمه الذي رعاه منذ نعومة أظفاره أن تغيب عنه تلك الملامح ومشاهدها المتحركة؟ الأمر الذي كان يدعوه للمبالغة في حفظه وإماطة الأذى عنه، ويحيطه دون عياله بعناية فائقة!!

ولم تخف تلك المواقف المباركة التي تناثرت على بقاع مكة وما حولها، فقد دونت صفحات التاريخ بعض صورها الخالدة، وكان أبو طالب رضي الله عنه يشهدها عن كثب فتقر بها عينه، ويحدث التاريخ أن عيال أبي طالب رضي الله عنه إذا أكلوا دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يشبعوا، وإذا أكل معهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم شبعوا وفضل من طعامهم، فيقول أبو طالب رضي الله عنه: إنك لمبارك(١).

وفي تذكرة الخواص لابن الجوزي أورد عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه قال قوم من القافه من بني مذحج لعبد المطلب لما شاهدوا قدمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أبا البطحاء احتفظ بهذا فانا لم نر قدماً أشبه بالقدم الذي في المقام من قدميه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء فإن لابني هذا ملكاً، ثم أن أبا طالب قام بنصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكفالته أحسن القيام، فكان معه لا يفارقه وكان يحبه حباً شديداً ويقدمه على أولاده ولا ينام إلا وهو إلى جانبه وكان يقول له: إنك لمبارك النقيبة ميمون الطلعة(٢).

وذكر ابن سعد في الطبقات قال: خرج أبو طالب إلى

---

(١) الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج١، ص١٦٩، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

(٢) ابن الجوزي، العلامة سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن، تذكرة الخواص، ص١٨، مؤسسة أهل البيت رضي الله عنه، بيروت، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

ذي المجاز ومعه رسول الله ﷺ فعطش، فقال: يا ابن أخي عطشت ولا ماء؟ فنزل رسول الله ﷺ فضرب بعقبه الأرض فنبع الماء فشرب[١].

وعن كتاب إيمان أبي طالب، بسنده عن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: قال أبو طالب للنبي ﷺ بمحضر من قريش ليريهم فضله: يا ابن أخي الله أرسلك؟

قال: نعم.

قال: إنّ للأنبياء معجزاً وخرق عادة فأرنا آية.

قال: ادع تلك الشجرة، وقل لها يقول لك محمّد بن عبد الله أقبلي بإذن الله، فدعاها فأقبلت حتى سجدت بين يديه، ثم أمرها بانصراف فانصرفت، فقال أبو طالب: أشهد أنك صادق، ثم قال لابنه علي عليه السلام: يا بني إلزم ابن عمك[٢].

وإذا كانت قريش قد أصرت على عنادها وغيها رغم تسلسل الآيات والبراهين فإن أبا طالب رضي الله عنه لم يتوان أو يتراجع عن الافتخار بها والاحتجاج بمآثرها، فمع كل حادثة وموقف يتجلى

(١) ابن الجوزي، العلامة سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن، تذكرة الخواص، ص٢٧، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
(٢) النقدي، الشيخ جعفر بن محمد، مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب رضي الله عنهما، ص٨٩، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

على مسرح الواقع كان يستثمره لتسجيل منظوماً فكرياً رائعاً، يزيل أستار الغشاوة والغفلة عن العقول، ويوقظها من سباتها وضياعها، فبينما كانت قريش غارقة في جهلها وضلالها، كان أبو طالب رضي الله عنه يبث ثقافة واعية تنهض بالواقع من ذلك الوضع المتكلس، الذي آثر الضياع والانحلال، حيث إن تلك اللفتات المضيئة التي يطلقها بين فينة وأخرى كانت تكشف عن الرؤى الحقة إلا أن قريش كانت تسترسل في عصيانها، وتغمض عن قراءتها بمعيارية منصفة وواعية، ومن تلك الأحداث المتناثرة، جاء في الخبر أن أبا جهل بن هشام جاء مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ساجد وبيده حجر يريد أن يرضخ به رأسه، فلصق الحجر بكفه فلم يستطع ما أراد، فقال أبو طالب في ذلك:

أفيقوا بني عمنا وانتهوا
عن الغي من بعض ذا المنطق
وإلا فإني إذا خائف
بوائق في داركم تلتقي
كما من كان من قبلكم
ثمود وعاد وماذا بقي

ومنها:

وأعجب من ذاك في أمركم
عجائب في الحَجَر المُلْصَقِ

بكف الذي قام من حينه
إلى الصابر الصادق المتقي
فأثبته الله في كفه
على رَغْمَةِ الخائن الأحمق[١]

ومن هذا المنطلق كان أبو طالب رضي الله عنه حريصاً على إظهار بعض تلك المآثر الطيبة بين فينة وأخرى لتتبين المكانة العظيمة التي اتسم بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإن كانت لم تخف لوفرتها، غير أنه يؤكدها كي ترسخ في الأذهان، ولا يكون لأحد مسوغ لإنكار تلك المنزلة الرفيعة، ونقتطف من أريج تلك الدوحة الخلابة باقة عطرة.

طلب الاستسقاء:

كان من عادة قريش إذا أصيبت بضراء أو ألم بها أمر معضل هرعت إلى بني هاشم لتبدد غمام الشدائد والمحن عن كاهلها، وجرت هذه العادة دائمة عند القرشيين لما كان لهذا البيت من منزلة عظيمة ألفها الجميع، فحادثة الفيل خالدة في ذاكرة التاريخ، وكان بطلها ورائدها عبد المطلب رضي الله عنه، حيث كانت السماء ترصد مساعي البغي والضلال فتمطرها بوابل غضبها، فتبقى هذه

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٩، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

الحادثة خالدة مدى الدهر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[١]. وتتوالى الأحداث والوقائع التي تجلت فيها مكانة هذا البيت، وماله من شأن رفيع، وتمضي الأيام وتترا على قريش المحن فتتعلق أنظارها بالبيت الهاشمي، ومن تلك المشاهد التي ينقلنا إليها التاريخ أن مكة اعتراها قحطٌ شديدٌ في سنة من السنيين فطلبت قريش من (أبي طالب رضي الله عنه) أن يستسقي لها فخرج ومعه غلامٌ - وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - كأنه شمس دجن تجلّت عنها سحابة قتماء وحوله أُغليمةٌ، فأخذه (أبو طالب رضي الله عنه) فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام باصبعه -أي أشار بها إلى السماء- وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق وأغدودق وانفجر له الوادي، وأخصب البادي والنادي.

ففي ذلك يقول أبو طالب -في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم-:

وابيضُ يُستَسْقى الغمامُ بوجهه
ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ لِلأرامِلِ
يَلُوذُ به الهُلاّكُ مِن آلِ هاشِم
فَهُمْ عِنْدهُ في نَعمةٍ وَفَواضِل
وميزانُ عَدْلٍ لا يَخِيس شعيرة
ووَزّانُ صِدْق وزنُه غير عائل[٢]

(١) سورة الفيل، الآية ١.

(٢) المحقق السبحاني، الشيخ جعفر، سيد المرسلين، ج١، ص٢٩٠، دار البيان العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

وتعود مآثر هذه الحادثـة الكريمة حينما أصيب الناس في العصر الإسلامي بقحط شديد فهرعوا إلى النبي ﷺ يلتمسون منه أن يستسقي لهم، فما أن رفع النبي ﷺ يده للاستسقاء حتى انهمرت عليهم بركات السماء بخيرها الوافر، فلما ابتهج الناس وسروا لهذه الآية الناصعة، عادت الذكريات تجول بخلد النبي ﷺ فمضى يثني على عمه أبي طالب رضي الله عنه ويستغفر له، ووردت تفاصيل هذه القصة حسب ما روي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ في عام جَدْب، فقال: أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبي يرتضع، ولا شارف يجترّ ثم أنشده:

أتيناك والعذراء تَدمَى لبانُها
وقد شغلت أمّ الرضيع عن الطِّفلِ
وألقى بكفَّيهِ الفتى لاستكانةٍ
من الجوع حتى ما يُمرُّ ولا يُحْلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا
سوى الحنظل العامِيّ والعِلْهز الفَشلِ
وليس لنا ألا إليك فرارُنا
وأين فرارُ الناس إلا إلى الرسلِ!

فقام النبي ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً هنيئاً، مريعاً سَحًّا سجالاً، غدقاً طبقاً قاطباً دائماً، درًّا تحيي به الأرض، وتنبت به الزرع، وتدرّ به الضرع، واجعله سقياً نافعاً عاجلاً غير رائث، فو الله ما ردّ

رسول الله ﷺ يده إلى نحره حتى ألقت السماء أرواقها، وجاء الناس يضجّون: الغرق الغرق يا رسول الله! فقال: اللهمّ حوالينا ولا علينا، فانجاب السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل.

فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه، ثم قال: لله درُّ أبي طالب! لو كان حياً لقرّت عينه. من ينشدنا قوله؟

فقام عليّ فقال: يا رسول الله، لعلك أردت:

وأبيض يُسْتَسْقى الغمامُ بوجهه

قال: أجل، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر، ثم قال رجل من كنانة فأنشده:

لك الحمدُ والحمدُ ممن شكر
سُقِينَا بوجهِ النبي المَطرْ
دعا الله خالقَه دعوةً
إليه، وأشخصَ منه البصرْ
فَمَا كَانَ إلاّ كما ساعةٍ
أو اقصَرَ حتى رأينا الدّررْ
دِفاقَ العزالي وَجمّ البِعاق
أغاثَ به الله عُليَا مُضَرْ
فكان كما قال عمّه
أبو طالبٍ ذو رُواءٍ غُرّرْ

بـه يَسّـر اللـهَ صَـوبَ الغمام
فهـذا العِيـان وذاك الخَبَرْ
فمـن يَشْكُر الله يَلْـقَ المزيدَ
ومـن يَكْفُر الله يَلْقَ الْغِيَرْ

فقال رسول الله ﷺ: إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت(١).

وقد ذكر العلامة الأميني قدس سره في موسوعة الغدير بعد أن ساق الحديث، قال البرزنجي كما في أسنى المطالب: قول النبي ﷺ: لله درُّ أبي طالب يشهد له بإنه لو رأى النبي ﷺ وهو يستسقي على المنبر لسره ذلك، ولقرَّت عيناه، فهذا من النبي ﷺ شهادةٌ لأبي طالب بعد موته أنه كان يفرح بكلمات النبي ﷺ وتقرُّ عينه بها، وما ذلك إلا لسر وقر في قلبه من تصديقه بنبوته وعلمه بكلماته(٢).

نعم لقد كانت تلك الخصال والمآثر التي تتابعت مع خطوات النبي ﷺ ونشأته المباركة تضيء روح أبي طالب رضي الله عنه وتغمره بهجة وسعادة، فتشرق بوجهه آفاق الحياة، وكلما

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٦٤،٦٥، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
(٢) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٧٥، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.

عظم الخطب وتكالبت عليه المحن والأحزان، انجلت وتبددت بما يشـهده من تجليات بديعة توقظ الضمائر الحائرة فتبعث فيها معاني الحياة.

الرعاية الكبيرة:

ناهيك عن العلاقة الحميمة التي ربطت شيخ البطحاء بابن أخيه فإنه استمات في النصرة والدفاع عنه، وبذل كلما بوسعه لحفظه وحمايته، ولقد وثق التاريخ مدى التضحيات الجزيلة التي قدمها في سبيل الدعوة والرسالة، ورغم ما واجهه من صعوبات قاسية وضغوط متوالية إلا أنه لم يتوان قيد أنملة في الاستقامة على هذا الطريق، وتحمل أعباءه الثقيلة، وكانت تلك المواقف والتضحيات الجليلة تكشف عن عقيدة راسخة أصلها ذلك التحرك الذي طوى صفحات حياته لرعايته وحمايته، واندفع بكل ما يملك من رصيد لتعزيزه وتنميته، ولم تكن المشاهد والصور التي سجلها التاريخ استثناءً لا ترد إلا تبعاً لمواجهة حدث أو قضية، وإنما كانت حضوراً دائماً لا ينفك عن مواكبة الواقع.

ولا غرو أن ذلك الاهتمام الكبير والحرص اللامتناهي الذي ملأ أعماق عميد الأسرة الهاشمية لم ينشأ اعتباطاً أو عفوياً، وإنما جاء نتيجة استبصاره بمكانة ابن أخيه، وماله من قدر رفيع،

وانطلاقاً من ذلك الحرص والرعاية الكبيرة سعى جاهداً لإماطة الأذى عن طريقه، ومواجهة المخاطر والمكاره التي تهدد حياته، ومن شدة خشيته كان يضجع ولده علي عليه السلام في فراش ابن عمه ليجنبه كل سوء محتمل، فقال له علي عليه السلام ليلة: يا أبت، إني مقتول، فقال له:

اصبرن يا بني فالصبر أحجى
كل حي مصيره لِشَعُوبِ
قدّر اللهُ والبلاء شديدٌ
لفداء الحبيب وابن الحبيب
لفداء الأغرِّ ذي الحسب الثا
قب والباعِ والكريم النجيبِ
إن تصبك المنون فالنبل تَبْرِى
فمصيبٌ منها، وغيرُ مصيبِ
كلُّ حيّ وإن تملّى بعمرٍ
آخذٌ من مَذَاقِها بنصيبِ

فأجاب علي عليه السلام، فقال له:

أتأمروني بالصَّبْرِ في نصر أحمدِ
ووالله ما قلت الذي قلت جازعًا
ولكنني أحببت أن ترَى نُصرَتي
وتعلم أني لم أزلْ لك طائعًا

سأسعى لوجه الله في نصر أحمدٍ
نبيّ الهُدَى المحمود طِفْلاً ويَافِعَا[١]

ولم تقتصر حماية شيخ البطحاء على دفع المخاطر والأذى عن النبي ﷺ وحفظ حقوقه فحسب، وإنما كان يستنفر كل قواه وإمكانياته للاقتصاص له من المعتدين، ورغم أن قريش لم تخف مدى حقدها وعدوانيتها للرسالة، إلا أنها كانت تحسب لتحركاتها ألف حساب مع وجود أبي طالب رضي الله عنه، الذي جاهر بالنصرة والمؤازرة، وتعددت تلك المواقف الحاسمة التي تجلت فيها أسمى معاني البطولة والفداء، حيث كشفت لقريش الخط الذي لا تتجاوزه أو تتعداه، وقد سجل التاريخ صوراً من تلك المشاهد الرائعة التي مثلت ذلك التسامي البطولي، ومنها ما روى أهل السير: أن النبي ﷺ خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي، فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟

فقام ابن الزبعري فأخذ فرثاً ودماً، فلطخ به وجه النبي ﷺ فانفتل النبي ﷺ من صلاته، ثم أتى أبا طالب عمه، فقال: يا عم! ألا ترى إلى ما فعل بي؟

فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥١، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

فقال النبي ﷺ: ابن الزبعري.

فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجلٌ لجللته بسيفي فقعدوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بني من الفاعل بك هذا؟

فقال: عبد الله الزبعري، فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً فلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم، وأساء لهم القول(١).

ولقد زخرت السير التاريخية بمختلف توجهاتها ومنطلقاتها بنظائر هذه المواقف البطولية اللامعة التي أبرزت الصور المشرقة لتلك الشخصية المتفانية، التي لم تتطلع إلى مكاسب تحصل عليها، أو مصالح تتوصل إليها، إنما كان باعثها وهدفها أن توفر الحماية الكاملة لحفظ هذا الدين بقيمه ومبادئه.

في الطريق إلى التجارة:

كانت التجارة الوظيفة الأساس التي امتهنتها قريش وبمثابة العصب المقوم لحياتها إذ لم يكن لها دخل اقتصادي آخر

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٥٨، ٣٥٩، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.

يستنقذها من الواقع المرير الذي تعايشه، فطبيعة المناخ المكي القاسي كان يحتم عليها اتباع تلك المهنة، وكانت لها رحلتان، إحداها إلى اليمن، والأخرى إلى الشام، رحلة الشتاء والصيف، وطوال رحلاتها لم يستوقفها شيء تعجب له، حتى عزم أبو طالب رضي الله عنه الانضمام إلى قافلة قريش المتوجهة للشام، حين أصيب بضائقة أجبرته على الالتحاق بركبها، وللعلاقة الجياشة والحميمة التي ربطت أبو طالب رضي الله عنه بابن أخيه جعلته يكاد غير قادر على فراقه، وهكذا كان حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لشدة لصوقه بعمه أبي طالب رضي الله عنه، فبينما القافلة تشق طريقها في عباب الصحراء باتجاه بلاد الشام، نزل الركب بُصرَى، فاستوقفها حبر نصراني على غير عادته، إذ كان يرقب من صومعته بدهشة بالغة تلك القافلة، ويلمس من خلال ما يشهده ما تختضن من بشائر سماوية مرتقبة خفيت على الملتحقين بها، الأمر الذي دفعه للمبادرة في تقديم حسن الضيافة والمبالغة في إكرام ذلك الوفد، ولم يكن ذلك التقدير إلا لشخص انشدَّت إليه كل أحاسيسه الجياشة وجوارحه المرهفة، ألا هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولما أيقن (بحيرا) بالدلائل التي رآها في النبي صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه، فقال لعمه أبي طالب: ما هذا الغلام منك؟

قال: ابني.

قال: ما ينبغي أن يكون أبوه حياً.

قال: فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حُبْلَى به.

قال: صدقت ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً فإنه كائن له شأن عظيم، فخرج به عمه حتى أقدمه مكة[١].

إن جميع المصادر التاريخية تذكر هـذه الحادثة وتنقل ما دار فيها من حوار بين أبي طالب والعالم النصراني -بحيرا- فما كان منـه إلا أن أخـذ بنصحه وعاد أدراجـه قافلاً إلى مكة، وليس مـن ريـب أن ذلك يدعو إلـى التوقف ومزيد من التأمـل، فلو أنه ساوره شـيء من الشـك والارتيـاب بخلاف مـا جاء بـه العالم النصرانـي لما حرص على الأخـذ بتنبؤاته، حيث جاءت مبادرته سـريعة في انسحابه من تلك القافلة، وهذه الخشية لم تنبعث من فراغ، إنما هي انطلاق من الحقائق التي أدركها شيخ البطحاء منذ وقت مبكر، وهو ما دأب عليه طوال رعايته له، فضلاً عن جهوده الدائمة بتوفير وسائل الحماية والأمن لحفظه ﷺ ودفع الأذى عنه، وجميع ذلك يبدد الغشاوة والاضطراب في اتخاذ المواقف المفتعلة، والمزاعم الجائرة.

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج١، ص٥٦٨، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

بطل العقيدة والكفاح

قد لا يتسنى للكثيرين الاستماتة في الدفاع والنصرة عن قضاياهم وأهدافهم، فربما حالت الظروف القاهرة التي تواجههم دون مواصلتهم واستقامتهم، فما أكثر الذين يتساقطون في منتصف المسير، فتتغير قناعاتهم وأفكارهم بطريقة تدريجية، هذا في حال ارتباط تلك القضايا والأهداف بمصائرهم ومصالحهم، أما حين تكون الأمور مرتبطة بالآخرين والمصالح العامة فإن المسوغ للترك والتراجع قد يكون أدعى وأكبر، ولذا أضحى الذين يحافظون على تلك المنطلقات والأفكار نماذج مشرقة على صفحات التاريخ.

ويتجلى في سياق هذا الصعيد مواقف شيخ البطحاء وما قدمه للرسالة من دفاع ونصرة نذر أن يكون لها قبيل ومماثل، فقد كان حامياً ومدافعاً بكل ما له من جهد وطاقة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، ودون حمايته كانت قريش تصنع الكثير الكثير لإيقاع الأذى به، غير أن جرأتها على فعل ذلك سيسبب لها

الخسارة الكبيرة، لأن محمداً ﷺ في ذمة عمه، الذي أقسم على مؤازرته، ونصرة دعوته، وتلك المواقف العظيمة تجلت في مواطن كثيرة، ومنها حين قال: يا أبن أخي إذا أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا، حتى نخرج معك بالسلاح.

وفي بعض مفاوضات قريش له يأتي إلى ابن أخيه ليبلغه مطالبها، وما توصلت إليه قريش من تفكير ورأي، وقد رأى النبي ﷺ ما داخل عمه من عبئ ثقيل لكثرة ما تواجهه به قريش في مفاوضاتها المتتالية، التي أرادت بها أن تتخلص من دعوة ابن أخيه، غير أن جواب النبي ﷺ الحاسم بدد غمام الحزن والهم عن كاهل أبي طالب رضي الله عنه، فيروى أن قريش مشوا إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إنّ لك سناً وشرفاً وإنا قد استنهيناك أن تنهي ابن أخيك فلم تفعل وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

ثم انصرفوا عنه، فبعث إلى رسول الله ﷺ فأعلمه ما قالت قريش وقال له: أبْقِ على نفسك وعليّ ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه بدو وأنه قد خذله وقد ضعف عن نصرته، فقال رسول الله ﷺ: «يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته».

ثم استعبر رسـول الله ﷺ باكياً، وقام من مجلس عمه. فنـاداه أبـو طالـب: ادن يا ابن أخـي مني، فأقبل عليه رسـول الله فقال له: اذهب يا ابن أخي وقل ما شئت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً وأنشد:

والله لن يـصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسـد فـي التـراب دفينا
فـانفُذ لأمـرك مـا عليك مخافةٌ
وابـشـر وقـرّ بـذاك مـنه عيونَا
ودعوتني وزعمت أنّـك ناصحي
ولقد صدقت وكُـنـت قبل أمينَا
وعـرضـت ديـنـاً قـد علمـت بأنه
مـن خير أديـان البريـة دينَا(١)

نعـم لقد مارسـت طغمـة قريـش العدائيـة ضغوطـاً متتالية وسبلاً متعددة لثنيه عن طريقه وعزله عن تصديه وتكفله، إلا أنه لم يتراجع أو يتقهقر، بل كان أشـد تجلداً وثباتاً كلما صعدت أدوات شـرورها وعدوانيتهـا، الأمر الذي دعا النبـي ﷺ لإجلال تلك

(١) الحسني، هاشم معروف، سيرة المصطفى، ص١٥٢، المؤسسة الفكرية للمطبوعات، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ابن الأثير، علي بن أبي الأكرم، الكامل في التاريخ،ج١، ص٥٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج٧، ص٤٤، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

التضحيات والإسـهامات الجزيلة، ويتحدث بمنطق الحق ولسان الصدق، عـن مآثره ومواقفه المشـرفة، بإكبار وتبجيـل، فما قدمه مـن إنجازات للدعوة والرسـالة يفوق كل تضحيـة وعطاء، فيقول ﷺ: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب[١].

المفاوض الأقوى:

حين كان مسرح الأحداث يموج بالانفعالات والتشنجات الداخلية وكانت التعصبات والأحقاد هي التي تدير دفة الواقع نحو ذلـك المنحدر، كان أبو طالب رضي الله عنه يقوم على تنسيق وجهات النظـر بيـن الفريقين ليصل بها إلى حلـول متوافقة، تتعايش بأمن وسلام، وتندفع لتعزيز سبل الطمأنينة والاستقرار.

وكانـت لأبـي طالب رضي الله عنه قـدرة راقية وأفـق رحب على الحـوار والتفـاوض بشـكل مميـز وأسـلوب رائع، تظهـر مدى الفطنة والحكمة التي اتسـمت بها شخصيته السامقة، الأمر الذي جعل قريش تظهر عاجزة في سـائر محاولاتها أمام شـموخ هذه الإمكانيـات الخلاقـة، التي لا تتزلـزل إزاء المخاطـر والعراقيل الكأداء، ولا تنحنـي أمام عواصفها الهوجاء، ورغم المحاولات المتكررة والسـبل التي اتبعتها قريش لعرقلة تنامي حركة الدعوة

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الأكرم، الكامل في التاريخ،ج١، ص٦٠٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

وشل قدراتها، إلا أنها كانت تبوء بالفشل والانكسار تجاه المنطق الراقي الذي امتلكه أبو طالب رضي الله عنه.

ولم تكن تلك المحاولات مبعثرة أو عفوية نسجت بسذاجة وإنما كانت تتم بتخطيط محكم، وتدارس في الأمر بين سادة قريش، فكان أبو طالب رضي الله عنه ينقضها تباعاً بما لديه من مؤهلات وقدرات كبيرة على المواجهة وإسقاط دعاوى الخصوم، وذلك ينبئ بوضوح أن السماء حين فوضت أبا طالب لتلك المهمة الحساسة والحرجة في ذات الوقت، فإنها انتخبت شخصية مختلفة كلياً في تطلعاتها ومنطلقاتها، ولديها من الكفاءة والامتياز ما يجعلها قادرة على المناورة وتغليب منطق الحجج والبراهين العقلية مهما طالت رحى السجال.

ورغم أن قريش شحذت كل قدراتها في ميدان السجال الحواري وغدت تستخدم كافة الأساليب المتنوعة ترغيباً وترهيباً لإرغام أبي طالب رضي الله عنه والإذعان للأمر الواقع، إلا أنها لم تستطع أن تتلاعب بقناعاته ومواقفه المتجلدة، بل كان تأييده يتضاعف يوماً بعد يوم، وكلما حاولوا هدم سور من ذلك الصرح صدوا بسور أعظم منه، حتى بدا عليهم الإعياء لكثرة ما استخدموا من وسائل وسبل، وظهر تخبطهم في نواحي كثيرة، وكأنهم باتوا لا يملكون وسيلة فيما يلتمسون به الوصول إلى أهدافهم للإطاحة بهذه الدعوة، فلما أضناهم ذلك مشوا إليه ليقدموا بين يديه صفقة

جاهليــة، تقوم على هدر دم النبــي ﷺ وفي مقابل ذلك يعوض بشــاب من قريــش، وظنهم أن ذلك يرضيه، ويغلــق عليه كل منفذ اعتــراض، غيــر أن أبــا طالــب رضي الله عنه بين مــدى بلادتهــم وضعف رأيهم، وننقل هذه الحادثة كما وردت في كتب السير:

لما علمت قريش أن أبا طالب لا يخذل رســول الله ﷺ وأنه يجمع لعداوتهم مشوا بعمارة بن الوليد، فقالوا: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم، فخذه فلك عقله ونصرته، فاتخذه ولداً وأســلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنــا وخالف دينك ودين آبائك وفــرق جماعة قومك نقتله، فإنما رجل برجل.

فقــال: واللــه لبئس ما تســومونني أتعطونــي ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً.

فقــال المُطَعِّــم بن عَدِيّ بن نوفل بن عبــد مناف: والله لقد أنصفــك قومك ومــا أراك تريــد أن تقبل منهم، فقــال أبو طالب: واللــه ما أنصفوني ولكنك قد أجمعــت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ فاصنع ما بدا لك[1].

فلــم تزعــزع تلــك المنــاورات المكثفــة قناعته، ولــم توهن

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الأكرم، الكامل في التاريخ،ج١، ص٥٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

عزيمته، بل كان ذلك يزيده إصراراً وتجلداً، ورغم إتباعهم للوسائل والسبل المتعددة إلا أنه لم يستعص عليه مواجهة تلك المزاعم والعلل، بل كان أقدر على تطويع ذلك فيما ينقض توجهاتهم.

صمود وتضحيات:

لا غرو أن تنامي حركة الرسالة وتصاعد دعوتها في المحيط المكي وما جاورها من قبائل العرب كان يشكل مصدر إزعاج عند زعمائها، وبمثابة اعتداء على موروثاتها وتقاليدها المتكلسة، الأمر الذي دفعها لإعادة النظر في طريقة التعامل مع الدين الجديد، لا من حيث تشييد روابط العلاقة القائمة، إنما قطع أواصرها نهائياً، فغدت تفتش عن ابتكار الوسائل والسبل الرامية إلى إعاقة انتشار مبادئها وتعاليمها، فأتمرت لتداول الأمر ومدارسته، وبعد نقاش طويل توصلت إلى إصدار صحيفة المقاطعة، لتجعل المسلمين ومعهم بنو هاشم في عزلة دائمة عن قريش، لا تجري معهم أي معاملة، وحرصت قريش أن لا يستثنى منهم أحد سوى أبو لهب ومن لف لفيفه، وقد أحصروا في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنين، وكان أبو طالب رضي الله عنه في جملة من حصروا، وهو شيخ طاعن في السن، غير أن ذلك لم يمنعه أن يتحمل قسطاً من الأذى الذي لحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت بمثابة سنين عجاف أقسروا فيها على مكابدة الجوع والعزلة والألم، فلما طال الأمر على هذه القطيعة الظالمة، أرسل الله الأرضة

إلـى الصحيفة وأكلت مـا فيها من ظلم وقطيعـة رحم وتركت ما فيها من أسماء الله تعالى، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ، فأعلمه بذلك، فأخبر النبي ﷺ عمه أبا طالب بذلك.

فقال: يا ابن أخي أربك أخبرك بهذا؟

قال: نعم. قال: والثواقب ما كذبتني قط فانطلق في عصابة مـن بنـي هاشـم والمطلب حتـى أتوا المسـجد، فلمـا اجتمعت قريـش قام فيهم قائلاً: أتيتكم في أمـر هو نصف بيننا وبينكم، إن ابـن أخي أخبرني ولـم يكذبنـي: إن الله قد بعث على صحيفتكم دابـة فلم تترك فيها إلا أسـم الله فقط، فـإن كان كما يقول فأفيقوا عما أنتم عليه، فو الله لا نسلمه حتى نموت من عندنا آخرنا، وإن كان باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم.

فقالـوا: رضينـا. ففتحوهـا فوجدوهـا كمـا قـال ﷺ، فانسـاقت الكلمات من أبي طالب رضي الله عنه كالسيل الجارف لتخلد الحدث العظيم قائلاً:

ألا هــل أتــى بـريـنـا صـنـع ربنا
على نأيهم؟ والله بالناس أرودُ
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت
وأن كل ما لم يرضه الله مفسد[1]

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٦٣، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.

وفي تاريخ أبي الفداء: روي أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم إن ربي سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها غير أسماء الله، ونفثت منها الظلم والقطيعة. فخرج أبو طالب إلى قريش وأعلمهم بذلك، وقال: إن كان ذلك صحيحاً، فانتهوا عن قطيعتنا، وإن كان كذباً دفعت إليكم ابن أخي، فرضوا بذلك، ثم نظروا فإذا الأمر كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً، فاتفق جماعة من قريش ونقضوا ما تعاهدوا عليه في الصحيفة، من قطيعة بني طالب[1].

المواقف الحاسمة:

لا غرو أن معدن الإنسان الأصيل لا يتبين ويعرف في ساعات الرخاء ورغد الحياة، إنما يتبين عند النوازل والابتلاءات، فكم من الناس تنكشف عوراتهم حينما يمحصوا ويمتحنوا، ولذلك جعل القرآن الكريم المعيار الأساس الذي تقاس به شخصية المؤمن مدى تحمله للمواجهات التي تعترض طريقه في مضمار الحياة، يقول تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2].

(١) أبي الفداء، المؤيد عماد الدين، تاريخ أبي الفداء، ج١، ص١٧٨، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٢ – ٣.

فتتجلى حقيقة الإيمان الصادق من خلال ما يجتاز الإنسان من عراقيل وصعوبات لا تستلب من عقيدته ومبادئه شيئاً، بل يكون أكثر تجلداً وثباتاً كلما تكالبت عليه بوارق الدهر، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[١].

ولقد تجلت هذه الملامح المتميزة في شخصية أبي طالب رضي الله عنه فرغم الظروف العصيبة التي واجهها إلا أنه لم يتنازل عن مواقفه وقناعاته، بل كان أشد رسوخاً وثباتاً عليها، وترجم ذلك من خلال مواقفه الحاسمة التي لم تنطف جذوتها طوال تاريخ الرسالة، ولقد كانت بمثابة الصاعقة بالنسبة لقريش، وكلما ظنت أنها كسبت جولة في صراعها المقيت اصطدمت بتصعيد أكبر من أبي طالب رضي الله عنه.

ومن روائع ما يذكره التاريخ أن حرص أبو طالب رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ينتهي إلى الوصف ومن شدة حبه له ما كاد يحتمل فراقه وغيابه، وإذا ما افتقده توجس خوفاً عليه، وخشي أن تباغته قريش فتغتاله، فبحث عنه ذات يوم فلم يجده، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني عبد المطلب ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم: ابن الحنظلية

(١) سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

-يعني أبا جهل- فإنه لم يغب عن شرّ إن كان محمد قد قُتل.

فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يا زيد! أحسست ابن أخي؟

قال: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه، فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر، فجاء رسول الله ﷺ إلى بيت أبي طالب.

فقال: يا ابن أخي! أين كنت؟ أكنت في خير؟

قال: نعم.

قال: ادخل إلى بيتك، فدخل رسول الله ﷺ فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي ﷺ فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون، فقال: يا معشر قريش! هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة، فقال: والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً، حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبو جهل[1].

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٤٩ دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.

وبقي على تلك المواقف لا يتنصل عنها قيد أنملة، يضحي في سبيلها بكل شيء، الأمر الذي دعا النبي ﷺ أن يستغفر له ويذكر مناقبه في كل موقف مماثل، وورد في السيرة والمغازي أن عتبة بن ربيعة أو شيبة لما قطع رجل عبيدة بن الحارث ين المطلب يوم بدر أشبل عليه علي وحمزة فاستنقذاه منه وخبطا عتبة بسيفهما حتى قتلاه، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش، فألقياه بين يدي رسول الله ﷺ، وإنّ مخّ ساقه ليسيل، فقال: يا رسول الله، لو كان أبا طالب حياً لعلم أنه قد صدق في قوله:

كذبتم وبيتِ الله نُخلي محمداً
ولمّا نطاعِنْ دُونَه ونُنَاضِلِ
وننصرهُ حتى نصرّع حوله
ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

فإن رسول الله ﷺ استغفر له ولأبي طالب يومئذ، وبلغ عبيدة مع النبي ﷺ إلى الصَّفْراء فمات فدفن بها[1].

ومن عجائب ما توسل به الخصوم ليكون مدعاة لدحض استغفار النبي ﷺ لعمه هو ما جاء من ذكر حكيم يمنع الاستغفار للمشركين، فيورد ابن أبي الحديد في شرح نهج

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٦٤، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

البلاغة: روى كثير من المحدثين أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[١]. الآية، أنزلت في أبي طالب، لأن رسول الله استغفر له بعد موته[٢].

فأي غفلة كان فيها النبي ﷺ حيث سوغ لنفسه الاستغفار لعمه بغير رضا السماء، فهل يكون ذلك؟ بل هل يحتمل أن يقع منه ﷺ ما ينافي انسجامه التام مع أحكام الدين وتعاليمه؟ وهو الذي لم يهادن أحداً فيما جاء به من أسس ثابتة لا تتغير أو تتبدل حسب الرغبات والتوجهات، وهل هناك ما يؤخذ عليه ﷺ كالذي ساقوه في الاعتراض؟ وهكذا ستتدرج الأمور تباعاً إذ لا تقتصر على الاستغفار والدعاء، إنما ما تجسد من مواقف خالدة على امتداد مسرى الرسالة، كعام الحزن وغيره، وكل ذلك ينبغي أن يتنزل إلى تلك المنزلة ويزج في ملحمة السجال والمدارسة لتأتي النتيجة تامة وصحيحة.

ورغم كل هذا الوضوح من الأدلة والبراهين التي ساقتها

---

(١) سورة التوبة/ ١١٣ - ١١٤

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٣، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

سير التاريخ الدالة على إيمان أبي طالب رضي الله عنه وتصديقه، إلا أن المناوئين أعرضوا عن كل ذلك وحصروا ما أوردوه من تضحيات ومواقف في حدود النصرة والمؤازرة لا غير، ويتفاقم ذلك التناقض والتهافت عند ذكر تلك الإنجازات التي قدمها في سبيل الرسالة وما بذله من إمكانيات لحفظها وحمايتها، ثم بعد تلك المشاق والصعوبات التي خاضها في أروع ملحمة بطولية على وجه الأرض، يتبين أنه مناوئ ومخالف للعقيدة العصماء، ولا يقاس هذا على سائر الناس، بل هو خاص ومنحصر في شخصية أبي طالب رضي الله عنه، وهذا ما لا يرضاه منصف ولا يقبله عاقل على وجه البسيطة، ولو حوكم كائن من كان على مثل هذا الأمر، لما قيل فيه إلا التسليم التام لم جاهد وضحى من أجله، ولم يكن بمقدوره الخلاص من تلك التبعات مهما بذل من جهد، أما إذا كان متبنياً ومسلماً لتلك المنطلقات والأفكار فلا مجال للشك والتلكؤ من أخذه بها، لكن قاتل الله العصبيات والأحقاد التي قلبت الحقائق والموازين وحرفت المعاني عن مقاصدها.!

تجليات العقيدة في شعر أبي طالب

لقد كان الشعر قديماً وحديثاً بمثابة قراءة أدبية معمقة لأحداث الواقع ومجريات الحياة، ووسيلة لحفظ التراث، وتخليد وقائع التاريخ وفكر المجتمع وثقافته، ومنذ أمد قديم كان الشعر لغة الأعلام المتداولة بين الشعوب، وله من المكانة المميزة في عادة المجتمعات وثقافتها، وقد تميز العرب في الجاهلية بنظم قوافي الشعر في أحسن صورة، وكانت نوادي الشعر تطل على أحداث الواقع ومجرياته الحساسة فتدون أفكاره وثقافته، وترسم أنماطاً مستجدة لحياة المجتمعات.

وحينما جاءت رسالة الإسلام طوعت هذه الوسيلة لخدمة الدعوة ومبادئها الأصيلة، لتباشر نشر مفاهيم الدعوة ورؤاها عبر قنواتها المسموعة، وانطلاقاً من هذا المبدأ أضحى حسان بن ثابت مؤيداً بروح القدس للمهمة التي كان يؤديها بشعره، وفي ذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحسان: «يا حسان لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يضع منبراً لحسان في

مسجده الشريف يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ويقول رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله»[1].

وكما كان الشعر يلبي تلك الاحتياجات ويحقق الإنجازات العظيمة، فإنه في المقابل جاء ليكشف عن حقيقة صاحبه وما يعتنقه من عقيدة وفكر، ومن الذين كان لهم قدرة راقية في هذا الفن شيخ الأبطح أبو طالب، ولقد ترجم عبر قراءته لمجريات الأحداث حقائق فريدة، وسجل تراثاً تاريخياً يعين على فهم ظروف الرسالة وما واكبها من أحداث عصيبة في بدء نشأتها، وفي ذات الوقت يعلن عن العقيدة والمنطلق التي اعتنقها في ذلك المشوار الرسالي.

وحينما تتأمل فيما ورد عنه يتجلى ذلك الاعتقاد الراسخ المتين، الذي انبعث من صميم وجدانه وأحاسيسه الجياشة، فضلاً عما حوى من حقائق ومعارف نفيسة، وقد وردت تلك المآثر الشعرية في الكثير من المصادر التاريخية المعتمدة لدى المسلمين، على مختلف مللهم ونحلهم المذهبية، كشرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي، وسيرة ابن هشام، والبداية والنهاية لابن الأثير، ومستدرك الحاكم، وغيرهم، وقد وردت بطرق

(١) الأميني النجفي، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٢، ص٧، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

التواتر كما عبر عنها ابن أبي الحديد المعتزلي.

وعن مدى أهمية تلك المآثر الشعرية التي سجلها أبو طالب رضي الله عنه وما لها من مكانة رفيعة عند أهل البيت عليهم السلام ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يعجبه أن يروي شعر أبي طالب وأن يدون وقال: تعلموه وعلموا أولادكم فإنه كان على دين الله، وفيه علم كثير[١].

ونورد جملة منها لنقف على شخصيته البطولية التي استماتت حباً وتضحية لنصرة الدين ومبادئه الخلاقة، ولم تتزعزع للضغوطات والمؤثرات الخارجية، التي مارستها قريش طوال خط الدعوة، وحملها بتفان وإخلاص.

شجاعة وبطولة:

فحين يتحدث عن النصرة ومؤازرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يظهر ذلك الإصرار الكبير الذي يعبر عنه في شعره، وقد انبعث من روح صادقة، وبصيرة ثاقبة، وإرادة عصامية متجلدة، فيقول:

ترجون أن نسخو بقتل محمد
ولم تختضب سمر العوالي من الدم

(١) النقدي، الشيخ جعفر بن محمد، مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب رضي الله عنه، ص٨٩، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

كذبتم وبيت الله حتى تفرقوا
جماجم تلقى بالحطيم وزمزم
وتقطع أرحام وتنسى خليلة
خليلا ويغشى محرم بعد محرم
وينهض قوم في الحديد إليكم
يذودون عن أحسابهم كل مجرم
على ما أتى من بغيكم وضلالكم
وعصيانكم في كل أمر ومظلم
بظلم نبي جاء يدعو إلى الهدى
وأمر أتى من عند ذي العرش مبرم
فلا تحسبونا مسلميه ومثله
إذا كان في قوم فليس بمسلم

ويتابع قراءة الآيات والدلائل التي اقترنت بشخصية النبي ﷺ وكانت أشد وضوحاً وانكشافاً من الشمس في رابعة النهار في نظرته، بحيث انطلقت قناعاته العقدية فريدة في تصورها، وواعية باستنباطها، فمن هو محمد ﷺ ؟ وما هي مآثره ومنزلته عنده؟ إنه كما ترجمها بمنظوماته الشعرية، النبوة الخاتمة، ذو المكانة العظيمة، والآية الشريفة، التي أطلت على الوجود الرحب، لتغمره بالخير والهداية والصلاح، فمن منطلق هذا السياق العقدي تنساق الكلمات المتجلية بالبصيرة والحكمة، والوعي والمعرفة، لتبدد حجب الارتياب وسموم

التشكيك والتردد لاعتناق منهاجه وبصائره.

أخلتم بأنا مسلمون محمداً
ولما نقاذف دونه بالمراجم
أمينا حبيبا في البلاد مسوما
بخاتم رب قاهر للخواتم
يرى الناس برهانا عليه وهيبة
وما جاهل في فضله مثل عالم
نبيا أتاه الوحي من عند ربه
فمن قال لا يقرع بها سن نادم
تطيف به جرثومة هاشمية
تذبب عنه كل باغ وظالم

عشق العقيدة:

كل من يعرف محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ويقف على ملامح شخصيته السامقة يؤسر بحبه وتعظيمه، إذ لم يكن شخصاً عادياً كسائر الناس، إنما كان ملائكياً في طبائعه وأخلاقه وكرمه وإنسانيته، اصطنعته يد السماء وعنايتها فسطعت في جميع جوارحه وهج نورانيتها، فتجلبب بأثواب القداسة والكرامة، وانبلجت شعع الهداية من غرة سناءه الزاهر، لتغمر فضاء الكون الرحب بأريجها العطر الخلاب، فكيف بمن قام على تربيته ورعايته منذ نعومة أظفاره تتعامى مقلتيه المتفتحتين دون التأثر ببصائره؟

ألا أبلغا عني على ذات بينها
لؤيا وخصا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا
نبيا كموسى خط في أول الكتب؟
وأن عليه في العباد محبة
ولا شك في من خصه الله بالحب
ألا من لهم آخر الليل منصب
وشعب العصا من قومك المتشعب
وقد كان في أمر الصحيفة عبرة
متى ما تخبر غائب القوم يعجب
محا الله منها كفرهم وعيوبهم
وما نقموا من باطل الحق مقرب فكذب
ما قالوا من الأمر باطلا
ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب
وأمسى ابن عبد الله فينا مصدقا
على سخط من قومنا غير معتب
فلا تحسبونا مسلمين محمدا
لذي غربة منا ولا متغرب
ستمنعه منا يد هاشمية
مركبها في الناس خير مركب

وإذا تغنى الشعراء بأمجادهم وبطولاتهم فنظموا القوافي

البديعة التي ملأت آفاق البوادي الشاسعة للافتخار بها، ولم يدع شاردة ولا واردة إلا أوردوها، فإن أبا طالب رضي الله عنه أخرس خطب المفتخرين بمفاخر البيت الهاشمي الذي علا شرفاً وسمواً بنبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، المصطفى من السماء، المحمود من العيوب والمساوئ، فالخير كل الخير من عبق رحيق نبوته:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخرٍ
فعبد مناف سرّها وصميمها
فإن حصلت أنساب عبد منافها
ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإنّ محمداً
هو المصطفى من سرّها وكريمها

وفي موضع أخر يعدد تلك المزايا السامقة بقوله:

إذا قيل من خير هذا الورى
قبيلا، وأكرمهم أسره؟
أناف بعبد مناف أبي
أبو نضلة هاشم الغره
وقد حل مجد بني هاشم
مكان النعائم والزهره
وخير بني هاشم أحمد
رسول المليك على فتره

تعبئة إيمانية صادقة:

لقد كانت كل ذرة من أبي طالب رضي الله عنه تتوق إلى الإيمان وتنساق في معراجه فقد غمر كيانه منذ أن يمم روحه بنسمات الهداية التي كان عليها، فغدا يلبي نداءها ويطوف في ضفافها، فاندفع بفتوة الشاب الملتهب بالجذوة والحماس ليحمل مشعلها، ويدعم بناءها، فإذا كانت وسائل الأعلام المغرضة تبث ثقافة التثبيط لإحباط مساعي الرسالة وصد حركتها، فقد كان أبو طالب رضي الله عنه يحمل فكراً مسؤولاً متحرراً من أغلال الجاهلية ورواسبها، لا يداهنها في تقاليدها ومعتقداتها الزائفة، فانبعثت مساعيه الصالحة في الحث على اعتناق القيم الفاضلة والخصال الخلاقة التي لا تكتمل حلقاتها إلا بالتسليم المطلق لمبادئ الرسالة ومفاهيمها، ولم تكن دعوته في السر والخفاء وإنما كانت صريحة ومعلنة، وقد صرح بها في مواطن كثيرة، تقدم ذكر بعضها وهو يحض على الامتثال لتلك التعاليم، فضلاً عن مواقفه وأشعاره.

وسائر المنطلقات والتطلعات أظهرت مدى ما يعتنقه من عقيدة راسخة لا يتراجع عنها أبداً، ويؤكد عليها في المحافل والنوادي، فمع كل اعتراض كان يؤسس فكرة ويطلق دعوة، وكان انبعاثه يسترسل في التعبئة وتجيش النفوس للعقيدة الصادقة والإيمان الأصيل، وها هو يدعو أخاه حمزة رضي الله عنه ويثبته على

الدين، ويحثه على تحمل مضض الصعاب والمكاره لينال الفوز الأكبر والربح الوفير، دون أن يلتفت إلى معتقدات القوم وما هم عليه من جحود وكفر، فيطلق نداء البصيرة والهداية بقوله:

فصبراً أبا يعلَى على دين أحمدٍ
وكن مظهراً للدين وفِّقت صابرَا
وحُطْ من أتى بالحقِّ من عند ربّه
بصدقٍ وعزم لا تكن حَمْزُ كافرا
فقد سرّني إذ قلت إنّك مؤمنٌ
فكن لرسول الله في الله ناصرا
وبادِ قريشاً بالَّذي قد أتيته
جهاراً وقل ما كان أحمد ساحرا(١)

ولا غرو أن أبا طالب رضي الله عنه كان يؤلف القلوب ويشحذها بالحب والوفاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانت هذه السيرة التي اتبعها مع الجميع، القريب والبعيد، العدو والصديق، الصغير والكبير، لا يستثني أحداً في دعوته للانضمام إلى ركب الرسالة المحمدية، حتى وإن استحوذت عليها سبل الغي والضلال، ومن الموارد التي آثرت عنه أنه دعا أبا لهب الذي عرف بالبغض والعناد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليتخلى عن مكابرته وعداوته فينصر ابن أخيه، ورغم أن ذلك لم

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٦١، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

يـؤد إلـى نتيجة طيبة معه، إلا أنه قرضه في شـعره ليثيـر في أعماقه حميـة الرحم ويحرضـه ليندفع في مؤازرتـه ودب الأذى عنه، فإذا كانت ثارات العرب الهوجاء تقدح شرارة الحروب الطاحنة فتراق الدمـاء على أصعدتهـا ثـأراً للعشـيرة والقبيلة، دون اكتـراث منها للجرائم الإنسانية النكراء التي ترتكبها، فما الذي يحبس أصحاب الرحم أن يعززوا خنادقهم وتتكاتف سـواعدهم لصد الأذى ودفع المكروه عن حماهم وأرحامهم، وفي ذلك ينشئ أبياته الحميمة:

عَـجـبـتُ يـابـن شـيـبـة عـازبٍ
وأحـــلام أقـــوامٍ لـديـك سِخاف
يقولون شايع من أراد محمداً
بظلم وقُــم فـي أمــرِه بخـلاف
أضـامـيـمُ إمّـا حـاسـد ذو خيانة
وإمّـــا قـريـب عنك غير صاف
فـلا تـركـبنّ الـدهـر منه ذِمامةً
وأنــت امــرؤٌ مـن خير عبد مناف
ولا تتركنهْ ما حييت لمعظِمٍ
وكــن رجــلاً ذا نـجـدةٍ وعفاف
يــذودُ العـدا عن ذروةٍ هاشميَّةٍ
إلاَ فُـهُـمْ في النـاس خيرُ إلاف
فــإن لـــه قـربـى لـــديك قريبةً
وليس بـذي حِـلـفٍ ولا بمصاف

ولكنّه مـن هاشم ذي صميمها
إلـى أبـحـرٍ فـوق البحور طواف
وزاحـمْ جميع الناس عنه وكـنْ له
وزيـراً على الأعـداء غير مجاف
وإن غضبت منه قريشٌ فقل لها
بني عمّنا مـا قـومُـكُـم بضعاف
ومـا بالُكم تَغْشَون منه ظُلامةً
ومـا بـال أحـقـادٍ هـنـاك خوافي
فما قومُنا بالقوم يخشون ظلمنا
ومـا نحنُ فيما ساءهـم بخِفاف
ولكنّنا أهـل الحفـائظ والنّهى
وعـزٍّ ببطحاء المشـاعر واف(١)

إن جميع تلك الروائع المبدعة التي جاشت بها قريحة شيخ البطحاء كانت تستأثر بالمعاني الخصبة والرؤى الواعدة التي تخلد مشهداً تاريخياً ينبض بالحركة والانطلاق، ولقد جاءت جميع قصائده وهي تتحدث بفخر واعتزاز عن عقيدة ومبدأ لا مثيل لهما على وجه البسيطة، فكل فقرة وإضاءة حملت تلك التباشير العظيمة، فلم تكن أشعاره نظير ملحمة شاعر ملتهب الحماس، إنما هي نهضة شاعر اشرأبت أعماقه بعقيدة إيمانية

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٤٦، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

أصيلة، فانبعثت الحقائق من فكره وروحه كالسيل المنهمر.

عام الأحزان والمصير الصعب

بعد المسيرة الشاقة والسنوات المريرة التي طواها أبو طالب رضي الله عنه وهو يدفع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته هجمات قريش وعدوانيتها الشرسة، أناخ به المصير المحتوم وحانت ساعة الرحيل والفراق، التي ستعزله عن ابن أخيه، وفي ذلك مصاب جلل على قلبه العطوف الرحيم ما كاد يقوى عليه، فكيف سيغدو وضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بعده؟ وما الذي ستصنعه قريش حين يمضي عنه ناصره الكبير؟ ومحاميه الشفيق؟

كل ذلك جعله مثقل بالهموم والاضطراب وهو يفارق ساحة هذه الحياة، فلم تكن الروابط العاطفية التي ربطته بابن أخيه كبيرة فحسب، وإنما كانت راسخة ومتجذرة لا يفصلها شيء، فضلاً عما تيقنه بأنه عظيم من العظماء، لا يدانيه أحد من الناس، في فضله ومناقبيته ومكارمه، التي تجلت آثارها وملامحها لكافة الناس، ولو لم تكن الرسالة تزاول شخصيته وتقترن بها لما أهمل التاريخ تناول ملامح تاريخه العبق، فهو

فريد في طبعه، ومتباين في خلقه ونهجه، ألفته قريش صادقاً أميناً طاهراً لا يضاهيه أحد في شمائل أخلاقه، إن كل ذلك أطال أرق أبي طالب رضي الله عنه وشتت فكره، فلماذا تتصدى قريش لعداوة محمد؟ وهو لم يأتها إلا لتنعم بالأمن والسعادة، وما الذي ستجنيه من محاربته والصد عن رسالته؟ غير الهوان والضياع.

وفي غمرة سحب الفكر والتأمل الطويل وما يطوف بمخيلته من مشاهد بديعة لملامح المستقبل، يدخل عليه جمع من زعماء قريش وهو مسجى على فراشه، وكعادتهم يبدؤون بالشكوى والتضجر مما يصنعه محمد صلى الله عليه وآله وسلم من تسفيه أحلامهم وشتم آبائهم، فلما سمع منهم مقالتهم أجال ببصره نحوهم وهو غارق بأوجاع المرض وآلامه، غير أن ذلك لم يشغله عن ترغيبهم في الإسلام ودعوتهم إليه، فغدا يوصيهم بقلب شفيق، ونفس عطوفة، قائلاً: أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش، والصّديق في العرب، وهو الجامع في كل ما أوصيتكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن، وأيم والله كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من النّاس، قد أجابوا دعوته وصدّقوا كلمته، وعظّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت، رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفائها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده، إلى أن قال: والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ بهداه إلاّ سعد، ولو كان لنفسي مدّة

ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي[١].

وقال لهم مرة أخرى: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد واتبعتم أمره فأطيعوه تنالوا السعادة في دنياكم وآخرتكم[٢].

بعـد تلك الرحلة الطويلـة التي قضاها أبو طالب رضي الله عنه في المرارة ومكابدة الألم سـلم نفسـه إلى بارئها وهي لم تتخل عن منطلقاتها وأهدافها، وكان طموحه أكبر من أن يوصف أو يقاس، فطيلة حياته كان مثالاً للنبل والكرامة والأخلاق الفاضلة، يقتفي أثر الصالحين ويعرج في معارجها العظيمة، ولم يسـجل التاريخ عليه مثلبة تدفعه عن منزلته، أو منقصة تشين خصاله وشخصيته، بل آثر الترقي في خصال الحمد والثناء، واشرأبت أعماقه ببصائر

---

(١) النقدي، الشيخ جعفر بن محمد، مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب رضي الله عنه، ص١٠٤، ١٠٥، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م. الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج١، ص٤٩٦، ٤٩٧، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

(٢) الحسني، هاشم معروف، سيرة المصطفى، ص٢٠٢، المؤسسة الفكرية للمطبوعات، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م. ابن الجوزي، العلامة سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن، تذكرة الخواص، ص٢٨، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م. النقدي، الشيخ جعفر بن محمد، مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب رضي الله عنه، ص١٠٥، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م. الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج١، ص٤٩٧، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

الهدى والصلاح، فقضى بعقيدته العصماء، غير مكترث بما يجري عليه من ضغط وتضييق، فلا شيء في الوجود يعدل هذا الإيمان الكبير الذي ملأ وجدانه وأحاسيسه المرهفة.

وورد في تاريخ أبي الفداء في ذكر وفاة أبي طالب: لما اشتد مرضه، قال له رسول الله ﷺ: يا عم قلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. يعني الشهادة. فقال له أبو طالب: يا ابن أخي لولا مخافة السبة، وأن تظن قريش إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، فلما تقارب من أبي طالب الموت، جعل يحرك شفتيه، فأصغى إليه العباس بأذنه، وقال: والله يا ابن أخي لقد قال الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي هداك يا عم. والمشهور أنه مات كافراً، ومن شعر أبي طالب مما يدل أنه كان مصدقاً لرسول الله ﷺ قوله:

ودعوتني وعلمت أنك صادق
ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا[1]

(١) أبو الفداء، المؤيد عماد الدين، تاريخ أبي الفداء، ج١، ص١٧٩، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

وحالما مضى أبو طالب رضي الله عنه وإذا بالمتغيرات السياسية تترا تباعاً على ساحة الأحداث، وفي تلك الفترة الزمنية الحساسة انتقلت الدعوة إلى مرحلة حرجة محفوفة بالمخاطر الجسام، وغدت قريش ترتكب من الجرائم ما لم تقدر عليه من قبل، وأضحت تضيق الخناق على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع تحركاته وتتصدى لإفشال مشاريعه، حتى استعصى الأمر على المسلمين وأصبحت الأوضاع حبلى بتفاقم المصاعب والأزمات، وفي الحديث المشهور: إن جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبو طالب: اخرج منها فقد مات ناصرك[١].

المصاب الجلل والتحولات المريرة:

لم تكن المصائب والأحزان التي توالت على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسيرة فمنذ نشء الدعوة وانطلاقة مبادئها كانت المحن والرزايا تسترسل كقطع الليل المظلم على الرعيل الأول من المسلمين، فتنتشلهم الواحد تلو الآخر ليكونوا رهن القتل والتعذيب والتشريد، وكم كان ذاك يترك أثراً بليغاً للحزن والألم على فؤاده صلى الله عليه وآله وسلم، غير أن كل ذلك الأسى لم يبلغ معشار ما ألم به من حزن لفقد عمه وناصره، فكان موته يعد صدمة حقيقية على حركة الدعوة والرسالة، وإذا كان حداد الحزن لكارثة أو

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٧، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

فقد عظيم يستمر أياماً معدودة، أو بضعة شهور ثم ينتهي كل شيء، فإن الحزن والحداد على أبي طالب رضي الله عنه فاق كل ذلك، فقد أصبح فقده رمزاً لحزن عميق يخيم على الواقع عاماً بأكمله، ولا ينتهي أثره مهما طال الزمن، فحالما انتهى نبأ وفاته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أغتم وتألم لفراقه ولحقه من الحزن الشيء الكثير، وآثر في السير أنه: لما مات أبو طالب أتى أمير المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآذنه بموته فتوجع توجعاً عظيماً وحزن حزناً شديداً، ثم قال لأمير المؤمنين عليه السلام: امض يا علي فتول أمره، وتول غسله وتحنيطه وتكفينه، فإذا رفعته على سريره فأعلمني. ففعل ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فلما رفعه على السرير اعترضه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرقَّ وتحزَّن، وقال: وصلتك رحم، وجزيت خيراً يا عم، فلقد ربيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً، ثم أقبل على الناس وقال: أمَ والله لأشفعن لعمي شفاعة يعجب بها أهل الثقلين.

وفي لفظ شيخنا الصدوق: يا عم كفلت يتيماً، وربيت صغيراً، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً[1].

وفي التذكرة قال ابن سعد: حدثني الواقدي قال: قال علي عليه السلام: لما توفي أبو طالب أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبكى بكاءً

(١) الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج٧، ص٣٦٨، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.

شديداً، ثم قال: اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه، فقال له العباس رضي الله عنه: يا رسول الله إنك لترجو له؟ فقال: أي والله إني لأرجو له، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر له أياماً لا يخرج من بيته.

وقال الواقدي: قال ابن عباس: عارض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جنازة أبي طالب وقال: وصلت رحمك وجزاك الله يا عم خيراً(١).

وفي تاريخ اليعقوبي: لما قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن أبا طالب قد مات عظم ذلك في قلبه واشتد له جزعه ثم دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرات وجبينه الأيسر ثلاث مرات ثم قال: يا عم ربيت صغيراً، وكفلت يتيماً، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً، ومشى بين يدي سريره وجعل يعرضه ويقول: وصلتك رحم، وجزيت خيراً، وقال: اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان، لا أدري بأيهما أنا أشد جزعاً، يعني مصيبة خديجة وأبي طالب.

وروي عنه أنه قال: إن الله عز وجل، وعدني في أربعة: في

---

(١) ابن الجوزي، العلامة سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن، تذكرة الخواص، ص٢٨، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م. الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج١، ص٤٩٥، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

أبي وأمي وعمي وأخ لي كان في الجاهلية[١].

وروي أن العباس بن عبد المطلب قال لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا رسول الله، ما ترجو لأبي طالب؟

فقال: أرجو له كل خير من الله عز وجل[٢].

فيا ترى لم كل هذا الحزن والجزع الصادر من النبي ﷺ؟ فضلاً عن الترحم والدعاء والاستغفار؟ فلو لم يكن له شأن مرموق لما لقي ذلك الاهتمام الكبير من النبي ﷺ، ولأصبح كأي فرد من أفراد المجتمع، وإذا ما كان مشركاً فلا يؤسف له، والحال أنه تصدر حقبة زمنية من تاريخ الأمة كان من نقبائها الرئيسين، ورغم تقدمه في العمر كان نشاطه لا يوصف بحد، فلا تكاد تخلو المواقف المصيرية للرسالة من حضوره وإسهاماته المشرفة.

وإذا بمصابه يتحول إلى حدث ساخن يتحرك في عمق القضية الدينية وتلمس أثاره في السلوك الإسلامي الذي صدم بفقده، وفي كنف المصاب الجلل والرزية المفجعة التي تركت أثراً بليغاً في القلوب رثا الإمام علي عليه السلام والده عند وفاته بكلمات خالدة، صور فيها التضحيات الكبيرة التي قدمها في

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٧، ص٥٤، الجزء الرابع عشر، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

سبيل النصرة لهذا الدين، وأوضح فيها مدى الألم الذي لحق بالدين لفقده، ولم يكن حديثه بدافع القرابة والنسب وإنما من مطلق الحق والواقع الذي كان عليه:

أبا طالب عصمة المستجير
وغيث المحول ونور الظلم
لقد هد فقدك أهل الحفاظ
فصلى عليك ولي النعم
ولقاك ربك رضوانه
فقد كنت للطهر من خير عم[١]

ثم من الجدير أن نذكر أن الدين الذي نأى بأتباعه عن إتباع الثقافات والأفكار المضللة الهدامة لحفظ لحمة المجتمع وصيانة مكتسباته، كانت مطالباته الصريحة للمسلم أن يغوص في أعماق الحقيقة ليلتمس حقائقها وبصائرها، دون أن يخضع للميولات والتوجهات والأفكار المغرضة، فتتعرض مصالح الدين والأمة للانتهاك والاستلاب، لتأسرها الندامة والحسرة نتيجة تقديراتها العشوائية الخاطئة، يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[٢].

(١) ابن الجوزي، العلامة سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن، تذكرة الخواص، ص٢٩،٢٨، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
(٢) سورة الحجرات، الآية ٦.

فكل هذه الحيطة والتثبت والاعتراض على العفوية الساذجة لموافقة ما يطرأ من مسارات متغايرة، إنما هي لاقتفاء المنهج العلمي الذي يطل على نوافذ الحقيقة ومنابعها من طرق مشروعة مستساغة توصلنا إلى مكونات الحقيقة ولوازمها، وهذه البصيرة لا تقتصر على قضية منفردة فحسب، إنما تشمل كافة ما يطرأ على ظهر الواقع من تناقضات واختلافات، فالنبي ﷺ الذي لم يدع الترحم على عمه أبي طالب والاعتزاز لمواقفه وتضحياته لا يستساغ بحال من الأحوال أن يتحول كل ذلك الاهتمام إلى نوع من المكافأة السطحية التي تفترض تنحيته عن تلك المكاسب التي قصد النبي ﷺ إشراكه فيها كلما تذكره مع ما يجري من وقائع وحوادث تاريخية، وهو الذي لم يصنع لأحد من الناس ذلك، بل كان ﷺ يأبى أن يفعل حتى لو كان على حسابات أخرى، لتعزيز قيم الحق ومبادئها الخلاقة، ومن ذلك ما يذكره التاريخ أنه لما مر على سبايا طيئ وفيهم سفانة بنت حاتم الطائي، فذكرت ما كان لوالدها من مكارم وسمات نفيسة، فإنه ﷺ تشكر لتلك الخصال الطيبة فأكرمها وأغدق عليها بعطفه، غير أنه لم يترحم عليه لأنه لم يكن مسلماً، فورد أنها قامت وقالت للنبي ﷺ: يا محمد أرأيت أن تخلي عنا، ولا تشمت بنا أحياء من العرب فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم

يـرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيـئ، فقال لها النبي ﷺ: يـا جارية هـذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسـلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق[1].

الرهانات الحرجة ومستجدات الأحداث:

بيد أن قريشاً لم تنفك عن أذية النبي ﷺ ومواجهة دعوته بكل قهر وقسـوة، غير أنها لم تجد فرصة سانحة تصب فيها جام غضبهـا، وتظهـر كامـن أحقادهـا المسـتعرة، كيوم مـات ناصره ومـؤازره، فما أن غيـب أبو طالب رضي الله عنه الثرى حتى استرسـلت فـي عدوانيتها وطغيانها، فجرى عليه مـن الأذى والتضييق ما لم يلقـاه، وأضحـت دعوته مهـددة بالمخاطر الجسـام، وأصبح لا يأمن على نفسـه، فضلاً عـن توفير الحمايـة لأصحابه، وأخذت الأوضـاع تتفاقـم في حدتها وضراوتها، مما اسـتدعى ذهابه إلى الطائـف ليبحث فيها عمن يعينه ويكفيه شـر قريش، فوجدها أبر لقريش فيما صنعت به، فسلطت ثقيف صبيانها وجهالها فرشقوه بالحجارة حتى سـالت قدماه دماً، فعاد إلى مكة خالي الوفاض، ولم يؤذن له بدخولها إلا بإجارة مطعم بن عدي، فوجدها متنمرة قـد كشـرت أنيابها، فأخـذ يعرض الأمـر على القبائل والعشـائر

(١) الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج٣،ص٢٨٨، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

تباعـاً، فلا يجـد منهم اسـتجابة وتلبية لدعوته، فازدادت شـوكة قريـش وصعـدت من أذاها وظلمها، وتجاسـرت بوضـح النهار لترشـقه بوابل سهامها دون أن يصدها شيء، فجالت بخلد النبي ﷺ الذكريات، يوم كان في حماية عمه، يذود عنه ذئبان العرب وعدوانهـا، ويرد عليهم بغيهم أضعاف ما يأتون به، فقال ﷺ: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب[١].

وعنِ هشـام بن عـروة قال: ما زالوا كافين عن رسـول الله ﷺ حتى مات أبو طالب يعني قريشاً[٢].

ولمـا رأى قريشـاً تهجموا قال: يا عم ما أسـرع ما وجدت فقدك[٣].

وفي أُسـد الغابة: قال رسـول الله ﷺ: مـا زالت قريش كَاعَّةً عني حتى مات عمي أبو طالب[٤].

---

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ج١، ص٦٠٦، دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
(٢) ابن الجوزي، العلامة سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن، تذكرة الخواص، ص٢٨، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
(٣) الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، ج١،ص٤٩٧، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
(٤) الجزري، عز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ج١، ص١٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

قرار الهجرة:

لقد كان النبي ﷺ ينأى بأصحابه عن أذى قريش وظلمها حينما انهالت على تعذيبهم وقتلهم وتضييق الخناق عليهم، وجلهم من الضعفاء الذين لا يمتلكون سنداً يدفع عنهم ما يجري عليهم من عدوان، فبعثهم سراً إلى الحبشة وجعل معهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان الهدف توفير الأمن والحماية لهم، فأصيبت قريش بخيبة أمل جعلها تستشيط غضباً وتتقد الأحقاد بأعماقها وتستعر كالمرجل، وغدت تتحين الفرصة للانقضاض على من بقي من أهل الدعوة، ولم تجد فرصة أفضل من فقد النبي ﷺ لعمه أبي طالب رضي الله عنه، فحالما هومت عيناه وإذا بالتغيرات تجري تباعاً على المسلمين، ويدق ناقوس الخطر لتهب عليهم عواصف قريش المشحونة بالحقد والكراهية، فلم تعد مكة كما كانت بالأمس، وباتت قريش لا تأبه بما ترتكب من جرائم.

ففي السنة الثامنة من البعثة الشريفة فقد النبي ﷺ أحد أركانه وصرح أعمدته الذي استند إليه في تبليغ رسالته، وما أن مضى حتى تهاوت الآمال في البقاء بمكة، إذ نكل به وضيق عليه، ولم يتسن له المكث بها أكثر من عامين، فأضحى بلا ناصر ولا معين، ولم يجد بداً من توطين نفسه للهجرة، وما أسرع أن جاء القرار من السماء للاستعداد لهذا الأمر.

وفي المقابل كانت قريش تخشى أن يقدم النبي ﷺ على أمر يخرجه من ذلك المأزق الحرج، فعزمت على قتله، غير أنه بقي أمر يؤرقها إذ كيف لها أن تتخلص من ثأر بني هاشم، وبعد مداولة وتمحيص توصلت إلى تشتيت دمه بين القبائل، فجمعوا عدتهم لتحقيق تلك الرغبة الشيطانية، فانطلقت جحافلهم لتنقض عليه بنصولها، غير أن عناية السماء تدخلت وحسمت الأمر بحفظ رسولها.

ورغم أن الأمر لم يكن هيناً على قلب النبي ﷺ إلا أنه لم يجد من بد من المضي في نقل منبر الدعوة إلى موطن أطوع في تقبل رسالته، سيما مع احتدام الأوضاع وتفاقمها على أهل الدعوة، فبعد السنين العشر التي قضاها النبي ﷺ وهو يلقى من قريش أقسى ألوان القهر والاستبداد قصد يثرب، بعد أن امتحن قابليتها وإمكانياتها للاستعداد والتعاطي مع هذا الأمر، فوجدها الأرض الخصبة والقاعدة المتينة التي يجسد فيها مبادئه ويطلق منها دعوته.

وقفة إجلال بين يدي أبي طالب رضي الله عنه:

لا غرو أن أبا طالب رضي الله عنه كان أحد القادة التاريخين الأفذاذ دون منازع، فبرغم ما استحوذ على الأجواء من كبت واستبداد، فضلاً عن التوترات السائدة آنذاك وما ساور قريش

من حقد وضغينة إزاء الرسالة والمرسل تكاد أن تفتك به في وضح النهار، لم يكن بإمكانها التجاسر على النبي ﷺ وإن حدث ذلك كانت تلقى الإجابة سريعاً، إذ أن وجوده يشكل حائلا وحاجزاً منيعاً دون ارتكاب جريمة عدوانية بحق ابن أخيه ﷺ، فمنذ توليه حمايته ومؤازرته كانت الأمور بأزمتها رهن تصرفه وسيطرته، ولم تنفجر الأوضاع بذلك الحجم الهائل إلا بعد مماته ورحيله، وهو ما عبر عنه النبي ﷺ: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب.

هذا هو أبو طالب رضي الله عنه الجندي الباسل، والفدائي المناضل، الذي أوى ونصر، ودافع وآزر، واستقام على التمسك بتلك المبادئ والقيم الأصيلة إلى أخر نفس، موطناً نفسه على التحمل والمواجهة، عصياً على المشركين، لا يتقهقر في قراراته وقناعته، ولقد راهنت قريش عبر محاولاتها المتكررة لانتزاع اعتراض أو اعتراف من شيخ البطحاء يدين به حركة الدعوة والرسالة، إلا أنهم لم يحصلوا على ذلك أبداً، بل كلما صعدت قريش من حقدها وعدائها ازدادت حصانة أبو طالب رضي الله عنه ومقاومته، بشعره ووجاهته وشجاعته، ولطالما أخرس الأفواه النشاز بمنطقه الرصين، وفدائيته المستبسلة، فأبو طالب رضي الله عنه هو البركة المهداة من السماء لحفظ قيم الدعوة وانطلاقة نهضتها الميمونة في آفاق المعمورة، وهو المهد الطاهر الذي حالف الحق بكل ما لديه من طاقة وقدرة، فمهما قلنا وسجلنا من

مآثر ومناقب في حقه فهو قليل، ولو جهدنا للبحث في سجلات التاريخ وأروقته فلن نجد شخصية مماثلة لهذه الشخصية العريقة، ولن نأتي بجديد إذا استنتجنا أن العشق العقدي هو الملهم والدافع لكافة المواقف والتضحيات العظيمة التي قدمها في مسيرة الدعوة.

خاتمة المطاف

بعد الإطلالة السريعة والقراءة الخاطفة للملامح الشخصية لشيخ قريش وسيد أبطحها وما زخرت به أمهات المصادر التاريخية من مواقف مشرفة وإسهامات عظيمة يقف لها الجميع على اختلاف نحلهم ومذاهبهم وتوجهاتهم بإكبار وتبجيل، ويتفقوا على أن تلك الإنجازات كان لها الأثر المهم والكبير على مسيرة الدعوة والرسالة، ولا غرو أنها لم تأت اعتباطاً ودون دراية، إنما كانت واعية ومستبصرة لسائر المنطلقات والأهداف.

ورغم كل ذلك العطاء الكبير الذي قدمه شيخ قريش وضحى لأجله، لم يلق في المقابل إلا المقت والهجوم الصارخ على منزلته ومكانته، والتعدي على سائر حقوقه وخصائصه السامقة، ولو قيض لأي كان في واقعنا الراهن أن يؤثر بتلك المواقف لما لقي إلا الود والاحترام والتقدير، ولأصبح نموذجاً يحتذا بخصاله وسلوكياته في سائر منتديات المجتمعات المسلمة، ولتحول بمرور الزمن

إلى رمز حقيقي يستلهم من نضاله وبطولاته وتضحياته الدروس والعبر، غير أنه لم يجد من ذلك شيئاً، وغدت رحى الصراع في سجال عنيف ومقيت لتنتهي إلى تلك النتيجة التي ابتغاها أعداء البيت الهاشمي، والتي استخدموا كافة الوسائل والسبل للانتفاض على مناقبهم ومآثرهم.

وقلما نجد في التاريخ الإنساني المرير شخصية نالت من القهر والاستبداد واستلبت من حقوقها وخصائصها كشخصية أهل البيت عليهم السلام فبرغم إسهاماتهم العظيمة التي ملأت آفاق الخافقين، وما حوت به مدارسهم من منقبية سامقة، تمتد لها الأعناق ويشار إليها بالبنان، فضلاً عن التميز الدائم الذي لم ينفك عنهم، إلا أن الإعراض سواء القهري أو المتعمد ظل النمط السائد في العلاقة القائمة طوال الحقب التاريخية المنصرمة.

وما أكثر ما يعترض على مثل هذا القول ويتهم أصحابه بالافتراءات والأكاذيب، غير إنك لا تجد تجسيداً حقيقياً ينبئ عن علاقة وطيدة وحميمة مع أهل البيت عليهم السلام إذا كان كل من ينشد إليهم ويتعاطف معهم يتهم ويلقب بأوصاف مختلفة.

ولا مناص أن المسلم المنصف والمقتدي بالسنة المطهرة وآياتها المباركة يتذرع بحبهم ويستهيم في ودهم وتبجيلهم، وتتجسد تلك العلاقة على سلوكه وانطلاقته، وجل المسلمين على هذا النحو في الاعتقاد والتوجه، إلا النزر اليسير الذين

رفضوا الحقائق رغم تجليها ووضوحها.

ومن هذا المنطلق ينبغي لنا أن نعيد قراءتنا للتاريخ بموضوعية وتفهم لنقتبس منه الحقائق والرؤى التي تعين على فهم الأحداث والمجريات، دون أن ننشد إلى الموروثات والتعصبات التي تحجب آفاق الحقائق، فتنتهك على خشبتها الحقوق والخصائص المشروعة في القوانين الدينية والإنسانية، لتزج بمكتسباتها وإنجازاتها الخصبة في أنفاق التيه والضياع المظلمة.

وإذا أردنا أن نفقه التاريخ بمنطلقاته ومقاصده، ونقرأه قراءة صحيحة وصائبة تنتهي بنا إلى كشف حقائقه وبصائره، فلن نجد سبيلاً يعيننا على ذلك أفضل من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، الذين حملوا بكل تفانٍ وإخلاص مشعل الهداية والصلاح لإنقاذ الإنسان من أميته وضياعه، وكانوا الترجمان الحقيقي لمعالم الرسالة ومبادئها الأصيلة.

ولو نقبنا في التراجم التاريخية فلن نجد صفحات ناصعة مفعمة بالتضحية والعطاء كحياة أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا أحرص الناس وأشدهم خشية على قيم الدين ومنطلقاته الأصيلة، وحفظ مصالح الأمة وحقوقها، بل لم يتيسر لأحد أن يقدم ما ضحوا وجاهدوا لأجله.

وفي هذا السياق ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لسلمة

بن كهيل، وعتبة بن عيينة: شرقا وغربا لن تجدا علماً صحيحاً إلا شيئاً يخرج من عندنا أهل البيت[1].

وعن ابن محبوب، عن أبي أيوب، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: أما أنّه ليس عند أحد من الناس حقٌّ ولا صوابٌ إلا شيءٌ أخذوه منّا أهل البيت، ولا أحد من الناس يقضي بحقّ وعدل وصواب إلاّ مفتاح ذلك القضاء وأوّله وسببه علي بن أبي طالب عليه السلام فإذا اشتبهت عليهم الأمور كان الخطأ من قبلهم إذا أخطأوا، والصواب من قبل علي بن أبي طالب عليه السلام[2].

ولم تقصر كنوز المعارف على باب من أبواب العلم أو ضمن ركيزة من ركائز الشرع المقدس، إنما هي بصيرة شاملة، ومعرفة واعية، وفقه أصيل، ينسجم مع معطيات الحياة ومستجداتها من منطلقات وأسس إيمانية أصيلة، بعيدة كل البعد عن الميولات المذهبية والعرقية وقنواتها المتشعبة، ومنعتقة عن ثقافة الواقع وأفكاره المتبلدة، تتطلع إلى تحقيق المكاسب والإنجازات لإنماء حركة الواقع ودفعه للنهوض من شرنقة سباته وضياعه.

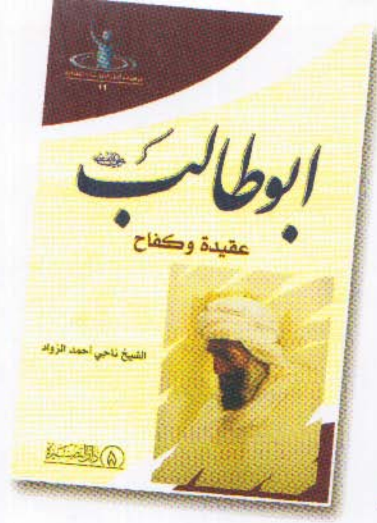
(١) العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار،ج٢، ص٩٢، مؤسسة أهل البيت،١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
(٢) العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار،ج٢، ص٩٤، مؤسسة أهل البيت،١٤١٠هـ ١٩٨٩م

ثبت المصادر

١/ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مؤسسة وزارة الإرشاد والثقافة الإسلامية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
٢/ الطبري، محب الدين أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى.
٣/ الأميني، عبد الحسين أحمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٩م.
٤/ العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة أهل البيت، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
٥/ الحسني، هاشم معروف، سيرة المصطفى، المؤسسة الفكرية للمطبوعات، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٦/ ابن الأثير، علي بن أبي الأكرم، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٧/ أبي الفداء، المؤيد عماد الدين، تاريخ أبي الفداء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٨/ ابن الجوزي، العلامة سبط الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن، تذكرة الخواص، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٩/ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
١٠/ النقدي، الشيخ جعفر بن محمد، مواهب الواهب في فضائل والد أمير المؤمنين أبي طالب عليه السلام، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
١١/ مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.
١٢/ العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة أهل البيت، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
١٣/ المحقق السبحاني، الشيخ جعفر، سيد المرسلين، دار البيان العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
١٤/ الحلبي الشافعي، العلامة أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
١٥/ الجزري، عز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

الفهرس



* هذا الكتاب:

منذ أمد بعيد تضافرت الأقلام المشبوهة للتلاعب والعبث برصيد الشخصيات التاريخية النضالية وتغييب أدوارها الريادية على صعيد العطاء الديني والإنساني، ولطالما انتقصت من حقوقها وتضحياتها الجزيلة، ولم يكن هذا التوجه السافر على مرحلة دون أخرى، أو ضمن ظرف دون آخر، وإنما هو امتداد متواصل تجاه الرموز المخلصة، وما قدمته من إنجازات ومكاسب، أسهمت في دفع المسيرة الإنسانية، وجددت فيها منطلقاتها وأهدافها المصيرية.

:: لوحة الغلاف للفنان الإيراني مرتضى كاتوزيان

